أدب الطبيعة

تأليف

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

المحامى

مطبعة التعاون

٣ شارع فرنسا بالاسكندرية

THE LITERATURE OF NATURE

A CRITICAL STUDY

BY

M. A. EL-SAHARTY

PUBLISHERS

APOLLO'S SOCIETY

ALEXANDRIA, EGYPT

1937

الثمن مائة مليم

2 Shillings
Net

المؤلف

تصدير

يسرنى كلَّ السرور أن أكتب هذا التصدير لأول كتاب فى موضوعه البكر باللغة العربية ، وأن يكون الأديب الكبير مؤلفه من شعراء الطبيعة المعدودين فى الأدب المصرى الحديث . وبذلك أُتيحت لى مناسبةٌ جميلةٌ للتنويه بهذا الأدب الحبيب الى نفسى ، ولبعض الإشادة بفضل المؤلف القدير والزميل الكريم رئيس تحرير مجلة (الإمام) الأدبية .

ولأبدأ بالمؤلف الشاعر الأديب ، لا معرّفاً فهو فى غنى عن التعريف ، بعد أن ملأ صحائفَ الأدب لخاصةِ الأدباءِ بنظراته النقدية الشائقة سنين طويلة ، ولكن منوّهاً بثروته الروحية التى قد يجهلها كثيرون من غير عارفيه . ومع هذا فانى أحتفظ بتحليلى لهذه الثروة الفاخرة ولهذه الشخصية الجذّابة عند التمهيد لديوانه الذى سيصدر عن قريبٍ .

ليس مصطفى عبد اللطيف السحرتى الا الأديب الانسانى بأوفى معانيه . وهو بفطرته شاعرُ الطبيعةِ المطبوعُ ، المتصوّفُ فى جمالها ومعانيها الى أبعد ما تلهمه الشاعريةُ الصحيحةُ . وهو رجلٌ مكتملُ الأخلاق ، ناضجُ الاحساس ، متّزنُ التفكير ، يدين بالانسانية فى صميم وجدانهِ ، وينبض فؤادُه بنبضات هذا الكون العظيم . فكتابهُ هذا هو موجز إنجيله المودع فى شغافِ قلبه ، هو لمحةٌ من الطبيعة الرائعة التى وسعت كلَّ شىء . وقد أبى له تواضعُه بل تصوّفُه الصادق أن ينسب لنفسه أثراً خاصاً فى تصنيف هذا الكتاب ، مع أنه بضعةٌ من شخصهِ بحكم

اختياره وملاحظاته ، وبما أسبغه عليه من روحانية وبما أفاضه عليه من حيوية سمحة .

يقول السحرتى فى قصيدته المؤنسة « العزاء فى الطبيعة » .

جلستُ فى وحدتى حزيناً وغمرةُ اليأسِ تحتوينى
وضاقَ صدرى بما يُلاقى من وطأةِ البؤسِ والشجونِ
وكدتُ فى نزعةِ الرواق أرى بقائى مِن الجنونِ
فراعَ فِكرى مِن المرائى بدائعُ الكونِ والفُنونِ
تَموجُ فى فرحةٍ ولهوٍ وفى صفاءٍ وفى حنينِ
فكلُّ طيرٍ تَراهُ حُرّاً يجول فى عالَمٍ حَنونِ
وكلُّ نَبْتٍ تَراهُ عذباً يميل طبعاً الى السُّكونِ
وكلُّ مَوْجٍ يُذيعُ سِرّاً فى عالَمِ الغَيْبِ والظُّنونِ
وكلُّ ضوءٍ له ابتسامٌ كبسمةِ الحظِّ للغبينِ
وفرحةُ الريحِ فى حَنانٍ كفرحةِ الخِدْنِ بالخَدينِ
وكلُّ مَرْأًى مِن المَرائى مَثابةُ الضَّوْءِ للعُيونِ
ومَصْدَرُ الجودِ للنفوسِ ومَبْعَثُ الأُنسِ للحزينِ

هذا هو الشفاء الروحانى الذى آمنَ به السَّحرتى ، ومن صيدليته الغنيّة منحَ هباتٍ كثيرةً لقرائه فى قصائده التى نشرها من قبل والمرتقبَة فى ديوانه الزاهر العاطر ، وفى تأليفه هذا المتألق بمختاراته لزملائه الشعراء وبملاحظاته المشرقة ، وقد مسحها جميعاً بعاطفته النقية التى لا تعرف التحزّبَ لأيّة اعتباراتٍ عرَضيةٍ من مذهبيةٍ أو سياسيةٍ أو شخصيةٍ ، فلم يحاول أن يُغفل أحداً عامداً أو ينتقص قدرَ أديبٍ ، بل أبدى أسفَه لأنه لم يتمكن من ذكر جميع الشعراء المحدثين فى مصر ، وإنْ لم

يقصر فى الاستشهاد بممثلى فئاتهم المختلفة على تباين مذاهبهم وطبقاتهم ، وذلك فى أمانة مثالية هى ما نصبو الى شيوعه بين نقادنا الأدباء .

وانّ أظهر آثار هذه النزاهة النقدية فى التأليف أن نظفر بكتاب مدرسىّ بديع فى موضوعه ، نقىّ فى أسلوبه ، كمالىّ فى نظراته ، جدير بالتداول فى معاهدنا الدراسية ، لا فى أيدى الخاصة من الأدباء وحدهم ، فانّ (أدب الطبيعة) هو من صميم الأدب الدينى العالى ، وهو كتابٌ أخلاقٍ رفيعٍ ، وهو سجلٌّ ثمينٌ للوجود الحىّ ، وهو تعريفٌ متّزنٌ للشعر العصرىّ ، وهو عرضٌ جميلٌ لآداب مأثورة عند العرب والانجليز والفرنسيس والأمريكان قديماً وحديثاً الى جانب روائع الأدب المصرى القديم . وصفحاتُ الكتاب على وفرتها تضمُّ أكثر مما تُبدى ، لأنّ الاسلوبَ المركّز الذى اشتهر به المؤلّفُ هو خيرُ ما قَلَّ ودَلَّ ، وهو مع ذلك بعيدٌ كلَّ البُعد عن الإبهام أو التعقيد . فالكتابُ قمينٌ بالدرس فى معاهدنا الدراسية ، إن لم نقل فى المدارس العربية عامةً ، بل حيثما دُرس الأدب العربى ، دون أن أستثنى الجامعات والمعاهد فى أوروبا وأمريكا . وليس شكٌّ عندى فى أن الترحيب الودى الذى سيلقاه المؤلف لدى جميع المنصفين أينما كانوا كفيلٌ باقناعه بأنه الحَكَمُ المنشود فى نقد الشعر العربى الحديث والترجمة لشعرائه (زيادةً على تعريب الشعر الفرعونى) وذلك فى سلسلة من المؤلفات ، حتى لا يبقى شعرُنا العصرى عالةً على الأدب العربى القديم الذى أحقُّ بالتخصُّص فيه كليةُ الآداب والجامعة الأزهرية لا معاهدُ التعليم العام . لقد شقى الأدبُ الحديثُ وخاصة الشعر العصرى بالتنافس السيء بين فئاته وقلَّ أن تنصف فئةٌ غيرَها ، فما يشرّف هذا الأدبَ ويخدمه معاً أن يتوفّر نفرٌ من خلصائه وأركانه على إنصافه وإنصاف خدّامه بنزاهةٍ متجرّدةٍ عن كل غاية الا

حب الجمال والتطلع الى الكمال . ويقيني أن هذا الكتاب بقدر ما هو شرفٌ للأدب الحديث هو شرفٌ كذلك لنزاهة صاحبه ورجاحة تفكيره واستقلاله النقدى . ومهما يكن من شيء فالعصمةُ فى الأحكام أمرٌ محالٌ ، ولكنَّ عفة القلم والنزاهة النقدية والتغلب على النزوات الهوائية والتشبّع بمثاليةٍ رفيعةٍ مما لا ندحةَ عنه لكلِّ مَن يتصدّر للنقد ، على اعتبار أن له مؤهلاته الثقافية وذوقه الفنى وممارسته الأدبية الكافية . والسَّحرتى كأديب ضليع تبحر فى الثقافات العربية والفرنسية والانجليزية فى طليعة مَنْ نفرح بآثارهم الذاتية كما نفرح بآثارهم النقدية الموضوعية . وهكذا جاء كتابُه (أدبُ الطبيعة) نقداً وشعراً منثوراً وتأريخاً أدبياً وبشارةً بعقيدة تصوّفية ترحّب بها روحُ الدين والأخلاق الكريمة ، وانّ فى كل هذا لفخراً للتأليف المصرى وللمؤلفين المصريين .

* * *

أمَّا عن أدب الطبيعة فقد أحسنَ المؤلفُ بما أتى به من شواهد وإشارات فى الأدب العربى القديم الى جانب القرآن الكريم . ولا عجب فظروفُ العربىِّ فى بداوته موحيةٌ بالتصوّف ، بحيث أن فطرته تهديه الى الاحساس بوحدة الوجود ، ولو لم يفقه ذلك أو أساء التعبيرَ عنه لأىّ اعتبار من الاعتبارات الشكلية أو التقليدية [1] . وهو فى محبته للطبيعة يشعر بأنه يحبّ وطنه الأكبر ، من حيث أن وطنه الأصغر ـ وهو بعيره وخيمته ـ دائم التنقّل . فوصفه للطبيعة ـ وإن يكن حسّياً ـ مقترنٌ باكبارٍ دينىٍ لها ، على اعتبار أنها المظهر الالهى العزيز . وقد تمشّى هذا الاحساسُ فى الشعر العربى إبان الحضارة الاسلامية ، فقال ابنُ الرومى

---

(١) عقيدة الالوهة ـ ملحق بمجلة « أدبى » ، ١٩٣٦ ، وكتاب الطبيعة فى الادب لادمند بلندن ـ Nature in Literature by Edmund Blunden.

بيته المشهور :

اذا ما أعارتها الصَّبا حركاتها أفادت بها « أُنسَ الحياةِ » فتأنسُ

فهذا احساس تصوّفى عميق . ولئن بعدَ شعراءُ العربيّة المتقدمون عن الافصاح عن التصوّف فى الطبيعة والتفتوا الى الوصف القصصى ، فما نستطيع أن ننكر أننا نلمس فى ضمير ذلك الشعر روحَ الفرحةِ بالطبيعةِ الحيّةِ ، وأنها الأمُّ التى تحتضن نسلها فى المباهج . وحسبى أن أذكر هذا الشعر لعمر بن أبى ربيعة :

قالتْ لجارتها عشاءَ إذْ رأتْ نزةَ المكان (١) وغيبةَ الأعداءِ
فى روضةٍ يمّسنها موليّةٍ (٢) ميثاءَ (٣) رابيةٍ بُعَيْدَ سماءِ
فى ظلِّ دانيةِ الغُصونِ وريقةٍ نبتتْ بأبلحَ طيّبِ الثرياءِ (٤)
وكأنَّ ريقتها صبيرُ (٥) غمامةٍ بردتْ على صوٍ بُعيدَ ضُحاءِ :
« ليتَ المغيريَّ العشيَّةَ أسعفتْ دارٌ به ، لتقاربِ الأهواءِ ! »

فهذا الشعرُ يعترف بأن جمالَ الطبيعة وأمنها مما يدعو الى هناءة الحبِّ ، وقد خُلقَ كلٌّ منهما للآخر ، فليس كلُّ ما فى الأمر التحدّث عن ظواهر الطبيعة حسب .

وإنْ نسَ فليس لنا أن ننسى شعرَ أبى تمام فى « الربيع » :

يا صاحبىَّ ! تقصّيا نظريكما تريا وُجُوهَ الأرضِ كيف تصوَّرُ
تريا نهاراً مُشمساً قد شابَهُ زهرُ الرُّبَى فكأنّما هو مُقمرُ
دُنيا تمعاشٍ للورى ، حتى إذا جاءَ الربيعُ فانما هى مَنْظرُ

---

(١) خلوه من الناس (٢) ممطورة غب المطر (٣) لينة التربة (٤) أى الارض الندية ، وهى مؤنث الاثرى (٥) سحاب فيه سواد وبياض

أضحتْ تصوغ بُطونَها لظهورها نُوراً تكاد له القلوبُ تُنَوَّرُ
مِنْ كلِّ زاهرةٍ ترقرقُ بالنَّدى فكأنها عينٌ إليك تَحَدَّرُ (١)
تبدو فيحجبُها الجميمُ (٢) كأنَّها عذراءُ ، تبدو تارةً وتخفَّرُ
حتى غدتْ وهداتُها ونجادُها فِئَتَيْنِ فى حُلَلِ الربيعِ تَبَخْتَرُ
مصفرّةٌ ، محمرّةٌ ، فكأنَّها عصبٌ تيمّن فى الوغى وتمضّرُ (٣)
من فاقعٍ غضّ الشبابِ كأنّه درٌّ تشقّقُ قبلُ ، ثم تزعفرُ
أو ساطعٍ فى حمرةٍ ، فكأنما يدنو إليهِ من الهواءِ معصفِرُ (٤)

فهذه الأبيات ليست مجرد وصف حسّى ، بل فيها من التأمل فى سرّ الطبيعة والاندماج بفرحتها . وعلى فرضِ صحةِ ما ذكره فقيدُ الشعر أبو القاسم الشابى (٥) من أن الشاعر العربى القديم كان « إذا تحدث عن ظواهر الطبيعة أسهب فى القول وأطال البيان ، ولكنه فى كل ذلك لا يتحدث عن الطبيعة بشغف الشاعر وخشوع المتعبّد ، بل يتناولها تناول القاصّ الذى لا يحفل بجلال المشهد أو جماله ، وإنما الذى يهمّه هو أن يصفه كما رآه ، دون أن يخلع عليه حُلةً من شعوره أو عبقاً من عواطفه » — على فرض صحة ذلك ، فان الشعر العربى لم يخسر بذلك الأدب الوصفى الصادق ، حينما الأدبُ المعاصرُ هو الخاسرُ بما يُضاف إليه من النظم التقليدى المحض الذى يجود به الشعراءُ المحافظون كلما وُجدتْ مناسبةٌ لأدب الطبيعة كاستقبال الربيع مثلاً .

ومهما تكنْ ميولنا الفنية الخاصة ، فلا مشاحة فى أنه ما من أديبٍ

---

(١) تحدر : تسكب الدمع (٢) الجميم : ما يغطى الارض من الاعشاب (٣) عصب : جمع عصبة بضم فسكون وهى العصابة . ويتمن وتمضر : تتشبه باليمانية والمضرية ، وذلك أن العداوة بين اليمانية والمضرية قد كانت مستحكمة الحلقات حتى اتخذ كل منهما شعاراً ، فكان شعار اليمانية الرايات الصفر والعمائم الصفر ، وكان شعار المضرية الرايات الحمر والعمائم الحمر . (٤) معصفر : صابغ بالعصفر وهو صابغ أصفر . (٥) الخيال الشعرى عند العرب لابى القاسم الشابى .

مجدّد منصف يمكن أن يستهين بأىّ شعر صادق ولو كان وصفاً حسياً محضاً . وما أحقّ الطبيعة بأن توحّد بين مدارس الشعر المختلفة ، فان تباين الأذواق بالنسبة للديباجة أو لكيفية التناول أو للنظرة الفنية الى الأشياء والمرائى والحوادث لا يثقل على النفس قدر ما يثقل عليها التصنّع والتقليد . ألم يقل عنترة:

ولقد مررتُ بدارِ (عبلةَ) بعد ما لعبَ الربيعُ بربعها المتوسّمِ
جاءتْ عليه كلُّ بكرِ حرّةٍ فتركنَ كلَّ قرارةٍ كالدرهمِ
سحّاً وتسكاباً بكلِّ عشيةٍ يجرى عليها الماءُ ، لم يتصرّمِ
وخلا الذبابُ بها ، فليس ببارحٍ غرِداً ، كفعلِ الشاربِ المترنّمِ
هزِجاً ، يحكُّ ذراعَه بذراعِه قدحَ المكبِّ على الزنادِ الأجذمِ!

فهذا الوصفُ البديعُ لم يخلُ من روح الطبيعة ، وهو أصيلٌ فى تأملاته ، وانى كرجلِ علمٍ مشغوفٍ بطبائع الحشرات لأغبط عنترةَ على وصفهِ الشعرىّ للذباب فى البيتين الأخيرين ! ومن هذا نخلص لا الى انتقاص الأدب العربى القديم بل الى الحثّ على الرجوع الى الطبيعة والحرص على الأصالة ، ولـيرسلْ كلُّ شاعر نفسه على سجيتها ولينبذْ التقليدَ نبذاً تاماً . وهناك فارقٌ كبيرٌ بين التأثّر غير المقصود الذى يُمليه العقلُ الباطنُ وبين المحاكاة المتعمّدة ، فالمحاكاةُ فى ذاتها مكروهةٌ ولو كانت لشاعرٍ كبيرٍ فكيف بها اذا كانت لمن دونه ؟ فنحن الغانمون بالشعر الساذج الحىّ الأصيل ، ولكننا الخاسرون بشعر التقليد مهما يكن فخماً فى مظاهره ما دام ميتاً فى روحه . وأملى أن يكون هذا الكتابُ رسولَ سلامٍ وهدايةٍ بين المجدّدين والمحافظين من الشعراء المعاصرين ، كما أرجو أن يكون مذكراً وبشيراً تتجلّى من صفحاته عظمةُ الطبيعة للمهتدين ، فيهرع المتخلفون اليها بعد ما مرّ بهم من جمودٍ ، وحسبهم من شواهد الأدب المصرى القديم ذاته ما

يستثير منهم هذه الروح الطبيعية القوية . وهم متى أحبّوا الطبيعة وأجلّوها وعبّروا عنها فستلهمهم التأمّل العميق فى كلّ ما حولهم ، وسيرون الحياة فى كلّ شىء وسيتدرّج شعرهم الى أن يشمل رحاب الوجود لا المجتمع وحده ولا الطبيعة الأرضية فقط .

* * *

ويأبى إعزاز السّحرتى للغته وأدبها إلا أن ينفحها بنخب من الشعر الغربى فى الطبيعة ، وشاءت أمانته أن ينقل مختاراته نقلاً حرفياً مع أنه كان فى وسع براعته القديرة أن تعرّب ذلك تعريباً كاملاً ، ولكنّ فى هذه الترجمة الحرفية فوائد للأدب المقارن وإن غضب منها أصدقاؤنا المحافظون .

وقد ألمّ بالتحليل العصرى لأدب الطبيعة الخالص والممتزج ، وهذا فى ذاته بحثٌ قيمٌ . والنقادُ الغربيون يعتبرون من الخطر على الأدب والأديب انفصالهما عن الاحساس بوحدة الوجود (١) . وقد كان حُبُّ الكلتيّين Celts الموروث للطبيعة من أهمّ العناصر التى أكسبت الشعرَ الانجليزىَّ متانةً على مرّ القرون . ولستُ أعنى بهذه الصفة سوى متانة الملاحظة والأصالة ، بغضّ النظر عن الأسلوب وأهمية الموضوع . فهذا الشاعرُ الغنائىُّ المبدعُ و . ه . ديفز W. H. Davies يتحدث عن قطيع الغنم فى الصباح وكيف جثم على العشب هادئاً نفوراً ، لأن صورته رُسمتْ فى السماء الزرقاء بقطع السحاب الفضية الصغيرة (٢) :

---

(١) فلسفة الأدب الانجليزى لدكتور إنجرام بريان
The Philosophy of English Literature. By Dr. J. Ingram Bryan.
(٢) أدب القرن العشرين تأليف وارد
Twentieth Century Literature. By A. C. Ward.

When I came forth this morn I saw
Quite twenty cloudlets in the air;
And then I saw a flock of sheep,
Which told me how these clouds came there.

That flock of sheep on that green grass,
Well might it lie so still and proud!
Its likeness had been drawn in heaven
On a blue sky, in silvery cloud.

فهذه الأبياتُ غايةٌ فى السذاجة ، ولكنها جميلة فنيّاً ، وتعبّر عن تذوّقٍ صادقٍ لمشاهد الطبيعة . ونحن إذ نقرأ شكسبيرَ وغيره من الشعراء المتقدمين نجد كثيراً من الأوهام المتصلة بالطبيعة [1] ومع ذلك نستسيغ ذلك الشعرَ لأنه شعرٌ صادقٌ . فصدقُ الشاعرية هو الميزانُ السليمُ لما يُرضى من الشعر كيفما كان عصرُه أو موضوعُه أو لغتُه . ولئن كان اتجاهُ الشعرِ الغربىّ الحديثِ هو اتجاهٌ من العامّ والمجرّد الى المعيّن والمحسوس [2] ، فنحن فى درجة نهضتنا الحاضرة لا نتشبّثُ بشىء من ذلك ، ولا نريد أن نقلد أىّ حركة لا فى شعر الطبيعةِ ولا فى غيرهِ ، وإنما يعنينا كما أسلفنا صدقُ الاحساس والتعبيرُ الأصيلُ وفقَ مزاج الشاعر ذاتهِ ، لا مطاوعةً لغيره ولا محاكاةً لأحدٍ مهما تكن منزلتُه . وبذلك نغنم لأنفسنا ولشعرنا استقلالاً وعزّةً ونبعث روحه الفنية بعثاً جديداً . ولا شك فى أنّ أدبَ الطبيعة المكتمل وثيقُ الاتصال بالروح الرومانطيقية ، فتشجيعنا للأدب الطبيعى هو فى ذاته تشجيعٌ لهذا التحرّر الوجدانى الذى من

(١) دراسة الشعر تأليف بلاكود وأزبورن
The Study of Poetry by Blackwood & Osborn.

(٢) الموكب الشعرى تأليف ركسبرج
The Poetic Procession by J. F. Roxburgh.

حظه دائماً أن يلقى المقاومة الشديدة الطويلة كلما ظهر فى أمة من الأمم ، حتى فى فرنسا التى أشاد المؤلف بتطوّر شعر الطبيعة تطوراً جميلاً فى أدبها (١) ، وإنْ كان من النقاد مَنْ لا يرى فى الشعر الفرنسى الحديث ما هو أفضل من الشعر الانجليزى منذ عهد سونبرن (٢) . وعلى أىّ حالٍ شتان بين تطوّر الشعر الأوروبى أو الأمريكى الحديث فى جملته وبين تطوّر الشعر العربى المعاصر ، فان شعراءنا الرومانطيقيين معدودون ، ولا تزال الأغلبية تعتبر الأدب العباسى مثلها الأعلى الواجب الاحتذاء لا الدراسة فحسب ! وقد ضاعت حتى الآن جهودٌ كثيرةٌ بذلها المتحرّرون المجدّدون لاستهواء اخوانهم المحافظين نحو الطلاقة الضيقة التى تعتبر الطبيعة والحياة فى ذاتها أسمى وأكمل من أىّ شعرٍ مثالىّ ولو جاء من قلم ابن الرومى أو شكسبير . ولماذا يقودنا الاعجابُ بأىّ أثرٍ أدبىٍّ الى عبوديةِ تقليدهِ حينما نبعُ الطبيعة الثارّ السّخىّ موهوبٌ للجميع ؟

والملحوظُ فى الأدب الأوروبى والأمريكى أن الشعر قد يسقط اعتبارُه نسبياً كما هو الواقع الآن فى أمريكا بالنسبة لعهد لونجفلو وهويتير ولويل (٣) ، وذلك بسبب ما يتّسِمُ به الشعرُ الحديثُ من الأناقةِ قبل الابداع والقوّة ، وتبعاً لضغط الأدب القصصىّ الشائع ،

---

(١) كتاب الحركة الرومانطيقية فى الادب الفرنسى تأليف استيوارت وتيلى
The Romantic Movement in French Literature by Stewart & Tilley.

(٢) الاشعار الفرنسية الحديثة تأليف باين ـ بين وايزابل كلارك
French Poem's of Today by De V. Payen-Payne & Isabelle H. Clarke .

(٣) مقدمة للادب الامريكى تأليف الدكتور بينتر
Introduction to American Literature by Dr. F. V. N. Painter.
وكتاب تاريخ كمبردج للادب الامريكى
The Cambridge History of American Literature.

ولكنَّ هذا الشعرَ لا ينتحر بذاته بسلاحِ التصنّعِ والتقليدِ الذى ما يزال آفةَ الشعرِ العربىِّ المحافظ .

ونحن المصريين فى عنصرنا وأصلنا شعبٌ غيرُ شرقىٍّ وغيرُ سامىٍّ ، فليس لنا أن نسخر من أنفسنا بتقليدٍ لا يشرّفنا لو أن للتقليد شرفاً . فكما أن لمصر أن تباهى بأن شمسَ التوحيدِ الأول أشرقت فى ربوعها فى ديانة (أتون) التى تأثرت بها المسيحيةُ ذاتها (١) ، فكذلك لها أن تفخر بأدبها المصرىِّ الصميم . ولا نقول بتقليده ، فوحيهُ ماثلٌ لأعيننا فى الطبيعة المصرية من ناطقةٍ وصامتةٍ ، وانما نقول بالتحرّر من قيود الماضى التى نرسف فيها ، مستردّين قوميتَنا الخالصةَ كما فعل الترکُ فى يقظتهم الأخيرة الرائعة ، ومعبّرين عن هذه القومية فى أدبنا وأعمالنا . واذا كانت اللغةُ العربيةُ بدلَ اللغةِ القبطيةِ هى الآن لسانُنا الشائعُ فليس معنى ذلك أن ننسى طابعَنا المصرىَّ الصميمَ وننساق الى آداب الامم الأخرى التى تنطق بالعربية . وهذه الولاياتُ المتحدةُ لغتها الانجليزيةُ ، ولكنها كيّفتها تكييفاً قومياً كما كيّفت أدبَها تبعاً لمزاجها الخاص ، فصار الأدبُ الأمريكىُّ شيئاً آخر غير الأدب الانجليزى . ونحن لا نكره بل نشجع الروابط الثقافية بين الأمم العربية الأصل أو العربية اللغة ، ما دامت هذه الروابط تخدم الاخاءَ الانسانى ، ولكن لا يجوز أن نسمح لهذه الروابط أن تذهب الى مدى العصبية الغاشمة حتى ننسى بها أسرارَ قوميتنا ، وحتى نضحى من أجلها بشخصيّتنا ونتغاضى عن الجامعة الكبرى التى تربط الأممَ المتحضرةَ بعضَها ببعضٍ فى سبيل تدعيم المدنية الحديثة وتحقيق

---

(١) كتاب قصة الانجيل تأليف ماكليود يرزلى

The Story of the Bible by Macleod Yearsley.

الرابطة الانسانية العظمى .

ولقد أحسنَ المؤلفُ بما أدلى به من الشواهدِ الجميلةِ العذبةِ المترجمةِ من الشعر المصرىّ القديم ، وهى شواهد مُثْبتةٌ لحياته القوية بالرغم من كرّ العصور . واذا كان لنا أن نبعث اليومَ أدبنا بعثاً جديداً فيجب أن يقوم ذلك على دعامتين لا غنى عنهما : الأولى الأدب القومى ، والثانية الأدب العالمى . وقد أخطأت وزارةُ المعارف حينما سارعت الى إنفاق الآلاف على إعادة طبع مؤلفات عربية قديمة أولى باخراجها الشعوبُ العربيةُ الخالصةُ ، وكان الأحرَى بها أن تلتفت الى الأدب المصرى الصرف الذى هو أساسُ قوميتنا وترجمانها المفصح ، والى الأدب العالمى الذى هو لسانُ الحضارةِ الراهنةِ التى ننعم بخيراتها ونستلهم نورَها . وبينما يستمتع الانجليزُ المثقفون بأمثال هذين التأليفين :

The Literature of the Ancient Egyptians by Adolf Ermen

The Literature of the Egyptians by Dr. Budge

لا نزال فى جهلنا لتاريخنا الأدبى القومى ، حتى فى هذا العهد الجديد من الاستقلال والحرية ، راسفينَ فى أغلال الفتح العربىّ لمصر ، مهما تحرّرنا من الاحتلال الانجليزى . ونقرأ من المقالات الحماسية الدينية والأدبية لنفرٍ من أعلام رجالنا ما يكاد يُشعرنا بأنهم سفراء لدولةٍ اسلاميةٍ عربيةٍ فى عالم الخيال ، لا أنهم أبناءُ مصر المبرّزون وحماةُ وطنِ الفراعنةِ ، وأن عليهم واجبات مقدسة ازاء تحرير وطنهم فكرياً وروحياً اسوةً بتحريره السياسى والاقتصادى !

وانّ العهدَ المثالىّ الجميلَ للأدبِ المصرىّ هو عهدُ أخناتون ـ ذلك

الانسانىّ العظيم الذى خلّدَ سيرةَ مصر الروحيةَ على كرّ العصور وسبقَ السيدَ المسيحَ بمثل تعاليمِه الرفيعةِ ، وقضى فى عهده على النفاق فى الأدب والفنّ عامةً كما قضى على الوحشية الحربية .

أليس عجيباً بعد مرور هذه الآلاف من السنين أن نجد شعرَنا المصرىَّ الحديثَ قصيّاً عن الطبيعة بقدر ما كان الشعرُ المصرىُّ القديمُ دانياً منها ، بل محتضناً إيّاها ؟ ! ثم أليس عجيباً أننا فى الوقت الذى نعتبر رجولتنا وكرامتنا فى استقلالنا الصحيح ، وفى الوقت الذى نؤمن بقيمةِ الأدب القومىّ فى تربية الشعب لا نكتفى باهمال لغتنا القديمة بل نهمل أدبها كذلك حينما يحتفى الفرنجةُ به أيَّما احتفاءٍ ، ولا نقتصر على ذلك بل نغفل الطبيعة المصرية ذاتها ونهرع الى الأدب العربىّ القديمِ المفروغِ منه نداعبهُ ونقلّدُه ، واذا تجرأ أحدنا على اصلاح هذه العيوب لم يكن نصيبُه الاّ الرجم بأيدى الأغلبيةِ الجامدةِ ؟ !

* * *

وبعد ، فانى أكرّر التهنئةَ لصديقى المؤلف الفاضل بتأليفه الأصيلِ القيّمِ ، وكلّى أملٌ بأنّ أثره سيكون أبعدَ مما قدّر له تواضعُه ، وأعدُّ عملَه هذا مساهمةً طيبةً فى سبيلِ تحريرِ لادهِ . وان الشجاعة الأدبية فى هذا المجال لتنمّ عن بطولةٍ نفسيةٍ ليست دون البطولة السياسية ، وما قيمةُ الاستقلال الشكلى لأمةٍ ترضخ لعبادةِ التقاليدِ التى لا تمتُّ بأيةِ صلةٍ لقوميتها الصحيحةِ ولا للحضارةِ الانسانيةِ التى ترعاها ؟ ويحقّ لى ولزملائى من

شعراء (أبولّو) أن نباهي بجهد السحرتي كشاعر وناقد ومؤرخ أدبي ، وقد جاء بكتابه هذا يسد فراغاً محسوساً في الأدب العربي المصري ، ويسن معنا تقليداً صالحاً في بر الأديب المخلص بزملائه الأدباء ؟

أحمد زكي أبو شادي

المقدمة

لشعورى بخلوّ الأدب المصرى من بحث فى أدب الطبيعة ، فقد رأيتُ أن أقدّم للجيل الحاضر زهرات من رياض الأدب المصرى القديم ، والأدب العربى ، والغربى ، والمصرى الحديث ، وقد جمعتُ هذه الزهرات من كل عصر ونسقتها فى هذا الكتاب ، ونفثت فى جوانبها نسيم النقد الخفيف ليجد القارئ فى تلاوتها روحاً وحياة ، ومهمتى فى هذا البحث هى فى الواقع مهمة الجنّان الذى قطف طاقة من رياض بهجة ، وربط بين أجزاء طاقته برباط جميل .

وليس فى هذا البحث شئ من صميم أعمالى الأدبية ، ولكنه تمهيد له ما بعده ، وغايتى منه الدعوة إلى الطبيعة الحبيبة ، واستيحاء مرائيها وظلالها ، وألوانها ، وهمساتها .

فالطبيعة فى كل زمان ومكان المثابة الحقيقية للوحى الأدبى ، والذين كشفوا عن عبقرية الوجود هم المؤمنون فى الحق بتآخى الانسان بها ، فقد كان الفيلسوف الألمانى شيلنج Schelling يرى أن الطبيعة تبحث فى الرجل عن صورتها ، والرجل يبحث عن صورته فى الطبيعة . وقد تأثّر بهذا الرأى الأديبُ الألمانى العظيم جيته وآمن بعظمة الطبيعة وعبقريتها ، وبضرورة اللجوء إليها لاستيحاء مرائيها .

وإذا تصفحنا سجل التاريخ الأدبى ألفينا كبار الأدباء أمثال ابن الرومى وابن خفاجة وابن حمديس وأبى فراس من شعراء العرب ، ووردزورث وشيلى وهاردى ومورلى من شعراء الانجليز ، ولامارتين وهيجو

وفرلين وجام وبول فور من شعراء الفرنسيين ، أولئك وغيرهم كثيرين ، كانوا من عُشّاق الطبيعة ، وكانوا يجدون فى جوارها نشوة وسعادة وإيناساً حقيقياً ، ويشعرون أن للمرائى عبقرية جديرة بالتفسير والتعبير . ونقطف من أقوال الشاعر الفرنسى ميسترال فى هذا الصدد قوله : « إن الفَنّان فى قلب الحقل ينبض ويهتز كما يهتز صدى الصوت ! »

وتقول الحقيقةُ الشعريةُ أن أتفه المرائى قد يخلق أدقّ التجارب الشعرية ويؤنس النفس المتجهمة ، فقد يفعم الضوء الوردى وقت الغروب قلبَ الشاعر بالهشة والحنان ، وقد تملأ موجات النهر الراقصة قلب الفَنّان بالفرحة والسعادة ، وقد تثير لؤلؤة متقطرة من سحابة نشوة نادرة ، وقد تبعث الظلال فكرة أصيلة مبتكرة .

ولا يزال الأدباء يحلمون فى جمال الطبيعة ومعانيها ، ولا يزالون يختلفون فى التعبير عنها ، وفى النظرة إليها ، وفى هذا الاختلاف قوة الأدب وتنوّعه . ولا يزال الأدب يتمخض عن تجارب ومشاهد أدبية فى المرأى الواحد ، تختلف التجربة أو المشهد فيه باختلاف مزاج الأديب وبيئته وثقافته وشاعريته .

وكثير من هذه التجارب لم يبلغ حد الكمال الشعرى ، بل هى تعابير ذاتية لعواطف النفس وانفعالاتها فى حضرة الطبيعة ، فقد تجد أحدهم يصف النهر المقدّس بالسماحة والوداعة ، وآخر يصفه بالغدر والتقلب والهوائية ! ولن نستطيع أن نُصوّر بالألفاظ سحر النهر وموجاته الباسمة ، ولن نستطيع أن نعبر بالقلم عن أضواء الشمس الوردية أو اللؤلؤية وهى تحتضن الوجود إلا على قدر طاقتنا المحدودة ، وعلى قدر روحانيتنا ، ومبلغ اندماجنا فى الكون .

وفى صفحات هذا البحث نماذج من أدب الطبيعة فى عصور مختلفة

تبين إلى حدّ ما مقدارَ تأثر الأدباء والشعراء بالطبيعة وطاقتهم على التغنى بجمالها ، وتفسير مرائيها ، وقدرتها على خلق جو شعرى يهيم فيه الخيال .

ولا أعدّ منصفاً إذا لم أقرر أن هذا البحث لم يكتمل وأنه فى حاجة إلى الزيادة والاستقصاء ، وقد يجد القارىء فى بعض أجزائه تهافتاً ، وقد يكون هذا راجعاً إلى توزّع نفسى فى أثناء الكتابة ، أو إلى قلة المراجع التى تحت يدى ، وكم أتمنى أن يوفى هذا البحث من يجد من نفسه حنيناً إليه ، ومن وقته سعة . وربما كان باعثى على نشر هذا الكتاب هو عذيرى أمام القارئ المثقف إذا وجد نقصاً أو خطأ وقعتُ فيه ، وكفانى نشوة روحية أنى أذعتُ فى آخر هذا الكتاب نفحات من الأدب المصرى الحديث ، وبخاصة أدب الشباب المصرى الذى يبشر بمستقبل أدبى زاهر ؟

المؤلف

أدب الطبيعة

الأدب المصرى القديم — أدب العرب — الأدب الانجليزى والأمريكى والفرنسى — الأدب المصرى الحديث

يدين الأدبُ للطبيعة الصامتة والناطقة بالإلهامات والخواطر والمعانى التى تختلف باختلاف العصور وتتباين بتباين الأمكنة ، وتتفاوت بتفاوت الثقافة والإحساس والذكاء

ولو ألقينا نظرة خاطفة إلى سجل التاريخ الأدبى ، لألفيناه فائضاً بنفثات المرائى الطبيعية ، ونفحات الكون العجيبة ، من فجر التاريخ إلى العصر الحديث ، وقد اختلفت باختلاف الأجناس والعقليات .

أجل ، لقد احتضن الأدب المصرى القديم قطعاً أدبية حية ، تأثرت بأمواه النهر المقدس ، وظلال السحب ، وشعاعات الشمس المضيئة ، وتعطرت بزهرات « اللوتس » الشذية ، ومَثَّلَت البيئة المصرية أصدقَ تمثيل .

وضَمَّ الأدب العربى فى عصوره المختلفة أعمالاً أدبية منوَّعة غنَّاها الشعراء والأدباء فى الفلاة والرياض ، وسبقوا بها الأدبَ الغربى الذى لم يتنبه للطبيعة إلا فى أوائل القرن الثامن عشر . وكان لبعض شعرائهم مثل ابن خفاجة الأندلسى قصائد تعتبر معجزة لهذا الأدب أىّ معجزة .

الأدب المصرى القديم

ويخيَّل إلىَّ أن شعراء مصر القديمة شعروا بجمال الطبيعة شعوراً حقيقياً ، ولوى بهم إليها حنينٌ صادقٌ ، وماست بأعطافهم لمرائيها نشوة بالغة ، وكان لجمال

النهر المقدس فى نفوسهم فرحة وهشة ، وأثرُ هذا الشعور مشرقٌ فى قصائدهم وأغانيهم ، التى تعدّ مفخرةً للمصريين القدماء ، والتى تتساوق فى عظمتها مع عظمة الفن المصرى القديم ، والتحف المصرية الخالدة .

ورجعة الى هـذا الأدب ترينا كيف كان الأدباء القدماء يزاوجون بـين الوجدان ومعانى الطبيعـة وبين الفلسفة والطبيعـة ، بل كيف كانوا يتغنون بالمرائى لذاتها . ويمكن أن نجد شواهد لهذا الأدب فى مجموعة شعرية صغيرة لشاربلى[1] نذكر منها قطعة وجدانية ، هى أغنيـة من أغانى الحب ، عبَّر عنها فَنَّانٌ نبض الحب فى قلبه وسط الحقل المصرى . اسمع إليه يقول :

تعـالى إلىّ ، فهـذه ساعـة من ساعات الخـلود
سأدنو منك فى الحقل الذى توّجته بالأزهار
وكل ألوان النباتات الحلوة العاطرة
والترع البهجـة التى حفرتهـا بيدى
حيث أنعش نفسى بالرياح !
هنالك نسير فى مكان جميل ، ويدك فى يدى
وصدرى مفعم بالذكريات !
إنها لجرعة مسكرة ، أن أسمع صوتك
وعند ما أسمعـه أحيا ـ
ولأن أراك (بكل نظرة) أحب إلىّ وأزكى
من الطعـام والشراب ،
أيهـا المخلوق الجميل !

وهذه الأغنية الرائعـة فى خفتها الحبيبـة ، وأسلوبها السريع ، ومعانيها

(1) Sharpley – Anthology of Ancient Egyptian Poems .

الرقيقة لا تقل جمالاً وروعة عن الأغانى الغربية الحاضرة .

ولعل أهم ما حفل به الأدباء المصريون الأقدمون هو (النيل) الذى كان له المكان الرفيع من نفوسهم ، وقد أنشدوا له كثيراً من الأناشيد ، نذكر منها أغنية موسومة « نشيد النيل » أشادت بهذا الكائن العظيم ، بل الآله الطيب الذى تجله السماء ، وتنبع منه الخيرات ، والذى يسخو بالهبات ، ويوحى بأروع الكلمات ، والذى ينشر البهجة بقلوب الأتقياء ، والفرحة بصدور الشباب ، وينتهى النشيد بهذه العبارات الوضيئة :

تلألأ . . تلألأ . . تلألأ أيها (النيل) !

وهب الماشية الحياة بالمرعى

تلألأ فى مجدٍ أيها (النيل) !

وفى المجموعة السالفة قصائد ومقطوعات أخرى نكتفى منها بذكر قصيدة « العازف Harper » ـ التى ترجمت الى جملة لغات لأنها احتضنت انفعالات نبيلة أهمها انفعال المسرة فى الحياة ، وملاقاة الدنيا بروح الفيلسوف الراضى ـ وقصيدة « الليل » التى تصف الدنيا بعد الغروب وصفاً فطرياً إذ يقول الشاعر :

« إن الدنيا تصبح فى ظلام مثل الميت ، والناس ينامون فى حجراتهم ورؤوسهم ملفوفة ، وخياشيمهم ساكنة ، وهم فى غفلة وذهول ، والصمت يُخَيِّم على المخلوقات » .

فهذه النماذج وغيرها هى من معجزات الطبيعة ، والدارسون للأدب المصرى القديم يعجبون كل الاعجاب بهذه القصائد وما وعت من جرأة فى الاستعارة ، وقوة فى التشبيه ، وحماسة فى التعبير ، وسرعة فى الأداء ، وتجرد عن الترصيع اللفظى ، ونحن أيضاً نجد فيها نفحة من روح مصر ، وتعبيراً أصيلاً عن مرائيها ، وتحفة ثمينة للفكر المصرى الحاضر .

وإذا اجتزنا بعض القرون إلى أيام العرب فى الجاهلية ، وفى صدر الاسلام ، والعصر العباسى ، والعصر التركى ، ألفينا تراثاً ثميناً لأدب الطبيعة ، ولكنه مجهول للكثيرين منا . ففى العهد الجاهلى تغنّى الشعراء والأدباء على ستار الصحراء ، ووصفوا أحداث الطبيعة الظاهرة فى أبيات جميلة مفردة ، وأكثر ما وصفوا : الفلاة والسحابة والمطر والخيل والابل والطير والوحش وبعض الأزهار كالأقحوان والخزامى . ولكنها كانت أوصافاً ذاتية مادية ، بعيدة عن الموضوعية ، وإن كانت دقيقة مستوعبة التفصيل . فامرؤ القيس مثلاً أجاد وصف الفرس فى معلقته المشهورة ، ووصف المطر فى أبيات متفرقة ، ووصف عيون الوحش بأنها مثل الخرز اليمانى الجامع للسواد والبياض . وزهير شبّه العين بمقلة المهاة ـ فأمّا المقلتان فمن مهاة . وطرفة وصف الجمل وصفاً مسهباً وخاطب القبرة والكروان فى قوله ـ لنا يومٌ وللكروان يومُ . وذو الرمة أجاد وصف المطر ، ووصف الظبية ، وقال فى قصيدة له يصف الشمس ـ إنها حيرى ولها بالجو تدويم ! ـ وأحسن أعشى قيس فى وصف الرياض وأنها تضاحك الشمس ! وأجاد أبو داؤد الإيادى فى وصف الابل ، وعلقمة الفحل فى وصف الخيل ، وعنتره فى وصف الغراب ، والمرقش الأكبر فى وصف صحراء كان يجتازها فى الليل الدامس وهو راكب ناقته جاء فيها :

وداويةٍ غبراء قد طال مهدُها تهالكَ فيها الوردُ والمرءُ ناعسُ
قطعتُ إلى معروفها منكراتِها بعيهمةٍ(١) تنسلّ والليلُ دامسُ
وتسمعُ تزقاءً(٢) من البوم حولها كما ضربت بعد الهدو النواقسُ

(١) العيهمة : الناقة . (٢) تزقاء : صياح .

فاذا تركنا هذا العصر إلى عصر صدر الأسلام ، وجدنا القرآن مفيضاً بآياتٍ نيِّرةٍ تدعو إلى النظر والتأمل فى مجالى الطبيعة وإلى التفكير فى ملكوت الله ، وغايتها تقوية الايمان بالألوهة . ومن ذا الذى يقرأ هذه الدرة من « سورة النور » فلا يهتز طرباً لجمالها الأدبى :

« اللهُ نورُ السموات والأرض ، مَثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكبٌ درىٌّ يوقد من شجرةٍ مباركة زيتونة ، لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ ، يكاد زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نارٌ ، نورٌ على نور ـ يهدى الله لنوره من يشاء » .

وعشراتٌ من آيات القرآن دعت إلى اجتلاء مشاهد الطبيعة واعتبرت ذلك ضرباً من الايمان ، وكان الخلفاء وكثير من أدباء الاسلام من المتأملين فى مظاهر الكون : فكان على بن أبى طالب يُقلب وجهه فى السماء ، ويعجب لمخلوقات الله ، وقد وصف كثيراً منها أفصح وصف ، وصوَّرها بأرصن عبارة ، وكان يدعو الناس إلى التبصر فى صور الأطيار لأنها كما يقول : تنادى فى الأسماع بوحدانية الله ! وله أوصاف أدبية رائعة للخفاش ، والطاووس ، والجراد ، والنمل ، ومن كلماته البليغة فى وصف النملة ، قوله :

« أنظروا إلى النملة فى صغر جثتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُنال بلحظ البصر . . . . كيف دبَّت على أرضها ، وصَبَت على رزقها ، تنقل الحبَّة إلى جحرها ، تجمع فى حرِّها لبردها ، لا يغفلها المنَّان ، ولا يحرمها الديَّان » .

ثم قال : « ولو ضربت فى مذاهب فكرك ، لتبلغ غاياته ، ما دلَّتك الدلالة إلا على أن فاطرَ النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شئ » .

وكثيرٌ من المتصوفين من ذوى القلوب الشفَّافة ، والأرواح الصافية ، ذابوا فى جمال الله ، واندمجوا فى الكينونة وهم فى حالات لاشعورية ، ونذكر

منهم حسن البصرى ، ومحيى الدين بن العربى ، والحلاّج ، وجلال الدين الرومى ، والعطار ، وحافظاً الشيرازى ، والسعدى الشيرازى ، والبسطامى الفارسى ، والشعرانى ، وذا النون المصرى ، وابن الفارض ، هؤلاء وغيرهم انصرفت أذهانهم عن الخلق ، واندمجوا بفكرهم فى مظاهر الكون العليا ، فكانت فكراتهم العجيبة : وحدة الوجود والشمول والحلول والوجد والفناء وفناء الفناء هى من ثمار التأمل الكونى ، وليس كل المتصوفين من رجال التأمل الكونى ، بل أغلبهم ، لأن أبا حامد الغزالى كان يظن أن الله معروف بلا نظر إلى الكون ، وقد خطأه فى ذلك ابن العربى .

ونكتفى بأن نلمع إلى أن حافظاً الشيرازى كان يرى أن الافتتان والانجذاب بمظاهر جمال الوجود يؤدى إلى العشق الحقيقى ، والوصول إلى الجمال المطلق(١) والوجود الكامل . ففى قصيدة له يقول :

تعلّمْ طريقَ الصدق من الماء الصافى
وتعلّمْ الاستقامةَ من سَرْوِ البستانِ

وكان شعراء العرب يختلفون الى الطبيعة فيجدون هنالك علاقةً لنفوسهم ، وملاذاً لأفئدتهم ، ووحياً لشاعريتهم ، فقد جاء فى (الأغانى) أن أبا تمّام وهو من أعلام الشعراء كان يختلف إلى الطبيعة ، وقد رؤى مرة تحت شجرة وبين يديه زكرة فيها شراب وإلى جانبه غلام يغنيه بالطنبور(٢) . وروى ابن رشيق فى كتابه (العمدة) أن الفرزدق كان يختلف كثيراً الى الطبيعة وكان إذا صعبت عليه صنعة الشعر يركب ناقته ، ويطوف خالياً منفرداً وحده فى شعاب الجبال وبطون الأودية ، فيعطيه الكلام قياده (٣) ، كما روى ابن

---

(١) مجلة الامام ، العدد الرابع ، أبريل سنة ١٩٣٦ (٢) الاغانى ، الجزء ١٥ ، ص ١٠٠
(٣) العمدة ص ١٣٨

رشيق أيضاً أن كُثَيِّراً الشاعر العربى كان إذا عسر عليه الشعر يطوف فى الرياض المعشبة ، والرباع المجدبة ، فيسهل الشعر ، ويسرع اليه جيِّده ، وكذلك كان أبو نواس (وهو من الشعراء الغزليين) يتلقى الوحى من الطبيعة الصغيرة . وهو الذى يقول :

« لا أكاد أقول شعراً جيداً حتى تكون نفسى طيبة ، وأكون فى بستان مونق » (١) .

فهؤلاء الشعراء يصرحون بأثر الطبيعة فيهم ، مع أن شعرهم فيها قليل .

فما بالنا بالذين لهم ضلعٌ كبير فيها مثل ابن الرومى ، ولعله شاعر القرن الثالث الهجرى الذى يمكن أن يقال إنه تناول الطبيعة تناولاً صحيحاً وصوَّرها بالمعنى المعروف ، فله قصائد فى الرياضِ - وفى قوس قزح - وفى السحاب - وفى شهر أيلول - وفى الهواء - والجدول ، وله مقطوعة بديعة فى الربيع هى فى نظرى أحسن ما قال فى الطبيعة ، ويمكن اعتبارها تجربة شعرية فنية يقول . فيها :

أصبحت الدنيا تروق من نَظَرْ
بمنظرٍ فيه جلاء للبصرْ
أثنت على الله بآلاء المطرْ
فالأرض فى روض كأفواف الحبرْ
نيِّرة النوّار زهراء الزهرْ
تبرجت بعد حياء وخفرْ
تبرُّجَ الأنثى تصدَّت للذكرْ

وهذه المقطوعة هى الدرة اليتيمة فى ديوانه كله خاصة بأدب الطبيعة ؛ أما

(١) عصر المأمون ، الجزء الثالث ، ص ٢١٨

باقى القطع فليست إلا خواطر ذهنية تأثرية (١) ؛ ولا يمكننا أن نحكم بدلالتها على اندماج ابن الرومى فى الطبيعة اندماجاً قلبياً ، وإن كنا نجزم بأنها ثمرة من ثمرات قوته التفكيرية أو خواطره النفسية . وعلى أى حال فشعر ابن الرومى فى الطبيعة فى جملته خير وأدق من شعر الطبيعة لشعراء جيله ، أمثال أبى تَمَّام الذى كان شحيحاً فى هذه الناحية ، ولا نعرف له إلا بضع مقطوعات منها مقطوعة السحابة التى يُمَثِّل فرحة الأرض بها بفرحة الأديب بالأديب(٢) ، ومنها مقطوعة له يمزج فيها معانى الرثاء بأحداث الطبيعة ، ونذكر منها هذين البيتين البليغين فى أخ حضر وفاته . قال :

لله مقلتـه والمـوت يكسرها ... كأن أجفانه وسنى من الوَسَنِ
يَرُدّ أنفاسـه كرهاً وتعطفها ... يد المنيـة عطف الريح للغصُنِ

ولا يمكن أيضاً مقابلة شعر ابن الرومى الفنى فى الطبيعـة بشعر البحترى الرصين ، وإن كنا لا ننكر رصانة هذا الأخير فى الوصف ، ونصاعـة أسلوبه الشعرى . ومن ذا الذى لم يقرأ له وصفه لبركة المتوكل وتشبيهه ماءها والريح تهبّ عليه فتكسره ، والغيث يسقط عليـه فيباكيـه ، فلا يتملكه شعور الاعجاب إذ يقول :

ذات ارتجـازٍ يحنين الرعـدِ ... مجرورة الذيل صدوق الوعدِ
مسفوحة الدمع لغـير وجـدِ ... لهـا نسيمٌ كنسيم الوردِ
ورنة مثـل زئـير الأُسْدِ ... ولمـع برق كسيوف الهنـدِ
جاءت بها ريح الصبا من نجدِ ... فانتثرت مثل انتثار العقـدِ

---

(١) مثل قطعتيه فى وصف الريح وفى وصف الجدول الذى يصف انسيابه بالحية المذعور .

(٢) يقول أبو تمام : سحابة صادقة الانواء ... تجر أهداباً على البطحاء
تجمع بين الضحك والبكاء ... بدت بنار وثنت بماء

فراحت الأرضُ بعيشٍ رغدٍ ... من وشى أنوار الربى فى بُرْدِ
كأنما غدرانها فى الوهدِ ... يلعبن من حبابها بالبَرَدِ![1]

فهذه المقطوعة بارعة فى تصوير السحابة وما يلابسها من الأحداث الطبيعية ، وقد عبّرت عن المرائى تعبيراً رصيناً ، ولكنها لم تصف روحها كما فعل القاضى التنوخى فى سحابته التى قال فيها :

سحابٌ أتى كالأمن بعد تخوّفٍ ... له فى الثرى فعلُ الشفاءِ بمدلفِ
أكبَّ على الآفاق إكباب مطرقٍ ... يفكر أو كالنادم المتلهفِ
ومدَّ جناحيه على الأرض جانحاً ... فراح عليها كالغراب المرفرفِ
غدا البر بحراً زاخراً وانثنى الضحى ... بظلمته فى ثوبِ ليلٍ مسجَّفِ
فعبَّس عن برقٍ به متبسِّمٍ ... عبوسَ بخيلٍ فى تبسّم معتفِ
تحاول منه الشمس فى الجو مخرجاً ... كما حاول المغلوبُ تجريدَ مرهفِ

ودونَ من ذكرنا مرتبة فى أدب الطبيعة ابن المعتز على الرغم من أنه أكثرَ من أوصافه لها ، ولكنها أوصاف حسية لا عمق فى خيالها ، وتشبيهات ظاهرية ، فهو يصف القمر مثلاً بهذا البيت :

وانظر اليه كزورقٍ من فضةٍ ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وهو يخلط خمرياته بأوصافه الطبيعية ، كما يمزج شعره الوجدانى بشعره الطبيعى ، وله بضع قصائد وأبيات مفردة تدل على لطف وجدانه . اسمع إليه يقول ، وقد أعدَّ فى الطبيعة شرابه :

أردتُ الشربَ فى القمرِ ... وقطعَ الليل بالسهرِ
وقد جمَّعتُ ما يلهى ... فلم أترك ولم أذرِ !

---

(١) وفى نهاية الارب للنويرى ، الشطرة الاخيرة : يلعبن ترحاباً بها بالرند ! ص ٧٩ ، الجزء الاول .

بل اسمع إليه يقول فى هذه القصيدة السهلة الرقيقة ، مازجاً بين الشراب ومرائى الطبيعة :

إذهبْ إلى بيت عذرهْ ومتع النفس قطرهْ
واصرف من الهمّ يوماً واطفر الى اللهو طفرهْ
فى مجلسٍ فوق نهرٍ فيه لعينيك قرهْ
تخال كلّ مليح قد صفّ فى الوجه طرهْ
ممن يجيب بشرط أو من يجود بمرهْ
وقد علا جانبيه وقد تجاوز قدرهْ
والدهر يعمل فى كلّ موضع فيه سرهْ
يسقى رياض جنان يرنو بأحداق زهرهْ
كأنه رقم وشىٍ بصفرة وبحمرهْ
كأنها حين مجت فى الكأس ريقة خمرهْ !

ولعل هذه القصيدة مثالٌ للشعر السهل العارى من المحسنات البديعية التى حشا بها ديوانه ، والتى ذهبت به الى الصنعة ، وخرجت به عن طبع الفنّان .

* * *

ولمعَ فى القرن الرابع الهجرى فريقٌ من أدباء الطبيعة ، وفى طليعتهم المتنبى ، وهو نجمٌ من نجوم جيله شُغل بالحياة عن الطبيعة ، وتوزع فكره وجال شعره بين طموح نفسه ، وأعمال الوجود ، ومع هذا التوزّع فقد ألّف بين أغراضه الشعرية وألوان الطبيعة ، وتلألأت بديوانه أبيات قوية حية وشّتْ شعره بألوان إيجابية ثابتة من ألوان المرائى ، وخفقت ومضاتُ حبه للطبيعة بقرائد متناثرة فى صفحات ديوانه ، وتعجبنى لفتته

المتوقدة للطبيعة فى إحدى مدائحه لعلى بن ابراهيم التنوخى ، إذ تنفس فى تلك القصيدة تلهفه لبحيرة طبرية فقال :

لولاكَ ، لم أترك البحيرةَ ، والغو رُ دفىٌّ ، وماؤها شَبِمُ
والموجُ مثلُ الفحول مزبدةً تهدِرُ فيها وما بها قَطَمُ
والطيرُ فوق الحَبَاب تحسبُها فُرْسَانَ بُلْق تخونها اللُّجُمُ
كأنها والرياحُ تضربها جيشا وغًى : هازمٌ ومنهزمُ
كأنها فى نهارها قمرٌ حفَّ بها من جنانها ظُلَمُ
تغنَّت الطيرُ فى جوانبها وجادت الأرضَ حولها الديمُ
فهى كماويَّةٍ مطوَّقةٍ جُرِّدَ عنها غشاؤها الأدَمُ (١)

وهذه القطعة هى نموذج طيب لأدب المتنبى ، وهى تجربة فنية تعلو قصيدة البحترى التى أسلفنا ذكرها فى « البركة » فى سرعة التأدية ، ووحدة القصيد ، ولكنَّ القطعتين متماثلتان فى أنهما وصف ماهر لمرأى من مرائى الطبيعة . وينفرد المتنبى فى قطع أخرى عن البحترى وابن المعتز ومن على طرازهما فى أخيلته الذهنية المبتكرة ـ تأمل وصفه البديع للمرأة الجميلة إذا تولاها الحياء ، وهو يشبهها بقرص الشمس نفض عليه القمر ضياءه ، ويمثل وجهها الأبيض باللجين صبغه العسجد إذ يقول :

قالت وقد رأت اصفرارى : مَنْ بِهِ ؟ وتنهَّدت ، فأجبتها : المُتَنهِّدُ !
فمضت ، وقد صَبَغ الحياءُ بياضَها لونى كما صَبَغَ اللجينَ العسجدُ
فرأيتُ لون الشمس فى قمر الدُّجى فتأودا غصن به يتأودُ !

ولا نستطيع أن نوافق الثعالبى صاحب (الدرة اليتمة) فى أن المتنبى استعار كوكبة من تشبيهاته من ابن المعتز ، لأن أكثر تشبيهات ابن المعتز شائعة

(١) « الطبيعة فى شعر المتنبى » للدكتور أبى شادى .

ولا تَعزّ على المتنبي ، كما لا نستطيع أن نجارى من يضع المتنبي فى شعراء الطبيعة المعدودين ، فانه مهما بلغ من منزلة شعرية عالية لم يكن من المتجاوبين مع الطبيعة التجاوب الوجدانى ، بل جُلُّ شعره فيها من نبع قريحته الذكية ، وفكره المتوقد ، وقَلَّ أن نقع له على قصيدة وجدانية مستقلة فى الغَزَل أو الطبيعة كما ذكرنا لابن الرومى ، بل لابن المعتز الذى كان أرقّ منه قلباً ، وألطف وجداناً ، وألهب عاطفة.

وربما وجدنا فى جيل المتنبي من هو أغزر مادة منه فى الطبيعة ، وأكثر اتجاهاً اليها ، ونذكر من بين هؤلاء السرىّ الرفاء ، والصنوبرى ، وأبا فراس ، وأبا القاسم الزاهى ، والمأمونى ، وكشاجم ، والتلعفرى فى المشرق ، ولُمَّةً نابهةً فى المغرب نذكر منهم ابن عبد ربه ، وابن هانىء ، وابن شهيد ، وغيرهم — كما ظهر فى مصر شعراء نابغون فى أيام الدولة الفاطمية توجهوا إلى طبيعتها وما ازدانت به أرضُها من الرياض التى جادها النيل بجمال فريد ، نذكر منهم أبا محمد بن وكيع الضبي التنيسى . ومن هؤلاء الشعراء مَن جارى ابن المعتز فى صنعته وافتنَّ فى الصيغ المزركشة ، ومنهم مَن استوحى وجدانه ، وكثير منهم طرق موضوعات جديدة ، وابتدع معانىَ طريفة ، وأخيلة وجدانية غير مسبوقة : فالسرى الرفاء جمع إلى خفة الروح ، لطف الخيال ، وإن لم يوهب قوة تفكيرية لأنه لم يتلق تعليماً منظَّماً . وله قطعة فى « الرياض » لا تخلو من صنعة ، وقطعة فى وصف « الورد » ، وقطعة فى وصف « الليل » وأما الصنوبرى فهو شاعر الطبيعة فى المشرق ، وأسلوبه ناصع ، وله معانٍ عجيبة ، وهو — كما يقول القيروانى فى كتابه (أعلام الكلام)[1] ، « وحيد جنسه فى صفة الأزهار ، وأنواع الأنوار » ولكنه يبدع الألفاظ ، ولا يعبر عن الاحساس . وقد عثرنا له على قطع متناثرة هنا وهناك[2] ، ولم نعثر

(١) ص ٢٤ (٢) مثل وصفه لليل فى اشراقه وفى ظلمته ، ووصفه للربيع وصفاً حسياً ، ووصفه للخريف وصفاً رقيقاً فذكر أنه يأتى فى قميص زمنى رقيق ، ورداء هوائى خفيف !

على ديوانه مع الأسف ، حتى يجوز لنا أن نحكم على مائية شاعريته ومعدنه الحقيق ، ونضع هنا قطعتين له فى وصف « النيلوفر » وقطعة أخرى فى وصف « النرجس » ، ومما جاء فى الأولى :

كلنا باسطٌ اليدِ نحو نيلوفرٍ ندِى
كدبابيس عسجدِ قُضبها من زبرجدِ

وفى النرجس يقول :

أرأيت أحسنَ من عيونِ النرجسِ أم من تلاحظهنّ وسط المجلسِ
درٌّ تشقق عن يواقيت على قضب الزمرد فوق بسطِ السندسِ
أجفانُ كافورٍ حُففنَ بأعينٍ من زعفرانٍ ناعماتِ الملمسِ

فالشاعر كما يبدو من هاتين القطعتين ـ وإن نظم فى موضوعات جديدة ومستقلة ـ لم يجانب الوصف الحسى الظاهرى للأشياء . وعلى هذا الغرار جرى ابن طباطبا فى وصف البان ، وأبو القاسم الزاهى فى وصف أحداث الطبيعة مع اختلاف فى التناول . وإلى جانب هؤلاء فى هذا القرن لمةٌ أخرى مختلفة تناولت مظاهر الطبيعة تناولاً وجدانياً ، وصورتها تصويراً قلبياً ، ونذكر من هؤلاء أحد شعراء الشباب فى القرن الرابع وهو أبو فراس ابن عم سيف الدولة ، ونُمَثِّل لشعره المطبوع الجارى من القلب بمقطوعةٍ له جرت على قلمه وهو فى أسر الروم ، وقد سمع حمامة تنوح بقربه على شجرة عالية :

أقول وقد ناحت بقربى حمامةٌ : أيا جارتا هل تشعرين بحالى ؟
معاذ الهوى ما ذقتِ طارقةَ النوى ولا خطرت منك الهمومُ ببالِ
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بيننا تعالى ، أقاسمك الهمومَ تعالى !
تعالى ترىْ روحاً لدىَّ ضعيفةً تردَّد فى جسمٍ يعذَّب بالى

أيضحك مأسورٌ وتبكى طليقةٌ ويسكت محزونٌ ويندب سالى
لقد كنتُ أولى منكِ بالدمع مقلةً ولكنَّ دمعى فى الحوادثِ غالى

وهذه المقطوعة هى نفثة من نفثات القلب ، جمعت إلى الرقة ، الانفعال الصوفى السامى ، وهى فى اعتقادنا تجربة شعرية فنية لم يعرفها الأدباء السابقون .

* * *

وكما أزهر القرن الرابع الهجرى بمن ذكرنا من أدباء الطبيعة وغيرهم مثل كشاجم من الوصافين المشهورين فى المشرق [1] ، وابن عبد ربه من الوصافين فى المغرب ، فقد أزهر القرن الخامس الهجرى بأدباء أغرموا بالطبيعة ونمَّ أدبهم على محبة حقيقية ، بل إن فيهم من لم يعرف القرنُ الرابعُ طرازهم ، ولا أوصافهم النفسية ، ونكتفى بذكر الميكالى والمنازى فى المشرق ، وللأول طائفة من المقطوعات فى مرائى الطبيعة ، ونفضل وصفه للنرجس ، إذ يقول :

أهلاً بنرجسِ روضٍ يُزْهَى بحسنٍ وطيبِ
يرنو بعينِ غزالٍ على قضيبٍ رطيبِ
وفيه معنى خفىٌّ يزينهُ فى القلوبِ

فمثل هذه الأوصاف النفسية طريفة ، جديرة بالاعجاب ، ولم نقع إلا نادراً على مثلها فى القرون الماضية . وتجرى مقطوعة المنازى على هذا المثال ، فقد أوحى إليه وادٍ من وديان الشام بمقطوعة ألّفت بين الرقة والطلاقة والوصف النفسانى ، قال :

وقانا لفحةَ الرمضاء وادٍ سقاه مضاعفُ الغيثِ العميمِ
نزلنا دوحَهُ فحنا علينا حُنوَّ المرضعاتِ على الفطيمِ

---

(١) من أحسن ما قرأناه لكشاجم قطعة بديعة فى وصف الثلج :

الثلج يسقط أم لجين يُسبكُ أم ذا حصى الكافور ظلَّ يُفَرَّكُ
راحت به الأرضُ الفضاءُ كأنها فى كل ناحيةٍ بثغرٍ تَضحكُ

(ص ٨٦ — نهاية الارب)

فأرْشفَنَا على ظمأ زلالاً ألذَّ من المدامةِ للنديمِ
يصدّ الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيمِ !

ويتجلى الميل للتعبير النفسى فى الشاعر الفنّان ابن خفاجة الأندلسى ، الذى يُعتبر فى اعتقادنا الشاعر الحقيقى للطبيعة ، لأنه كان يميس بين نباتها ويعيش فى صحبتها فى أحلام لذيذة ، وقد أشرقت الطبيعة بضيائها وألوانها وظلالها على أغلب قصائده التى نذكر منها قصيدته الطويلة الشهيرة فى الجبل (١) ـ وقصيدته فى شجرة النارنج ، وفى السحابة ، وفى الريحانة ، وفى النهر ، وفى النيلوفر ، وفى غيرها من مرائى الطبيعة ، التى تناولها تناولاً مستقلاً ، ولم تخلُ قصائده فى المدح ولا الرثاء من ألوان الطبيعة . إسمع اليه يفتتح قصيدة من قصائد المدحِ موجهاً الخطاب إلى ممدوحه :

يا نشرَ عرفِ الروضة الغنّاءِ ونسيمَ ظلِّ السرحة العيناءِ (٢)
هذا يهبّ مع الأصيل عن الربا أرجاً ، وذلك عن غدير الماءِ
عُوجا على قاضى القضاه غديةً فى وشىِ زهرٍ أو حُلى أنداءِ

ثم يقول فيه مازجاً بين صفاته وبين صفات الطبيعة فى بيت مفرد :

وكأنه من عزمةٍ فى رحمةٍ متركبٌ من جذوةٍ فى ماءِ

وفى رثائه للوزير أبى محمد بن ربيعة يقول ملوناً رثاءه باللون الطبيعى :

فلطالما كنا نريح بظله فنريح منه بسرحةٍ غنّاءِ

---

(١) جاء فى هذه القصيدة :

وأرعن طماح الذؤابة باذخ يطاول أعنان السماء بغاربِ
يصدّ مهبّ الريح من كل وجهة ويزحم ليلاً شهبه بالمناكبِ
وقد على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالى ناظر للعواقبِ

(٢) العيناء : الخضراء

ويقول فى القصيدة نفسها :

قاسمتُهُ فيه الرزءَ أكرمَ صاحبٍ فمضى ينوءُ بأثقل الأعباءِ
يهفو كما هفت الأراكةُ (١) لوعةً ويرنّ طوراً رنةَ الورقاءِ !

والمتصفح لديوانه يرى فنّاناً يهتز للمنظر الوسيم والجدول النمير ، والزهر المونق ، والغصن المروّح ، وظل الليل الأخضر ، وماء الصبح الأزرق ، كما يقول ، ويظفر بشاعر يطارح الطير ، ويراقص الغصن ، ويداعب الهواء ، بل يجد فنّاناً لا يعبر إلا عن الانفعالات الأدبية الحلوة والعواطف الجميلة ، مثل انفعالات المسرة ، والأمل والإعجاب ، والجمال ، دون غيرها ، ومن قصائده قصيدته العذبة فى شجرة على نهر جاء فيها :

لله نهرٌ سالَ فى بطحاءِ أشهى ورودا من لمَى الحسناءِ
متعطفٌ مثل السوار كأنه والزهرُ يكنفهُ مجرٌ سماءِ
قد رقّ حتى ظن قرصاً مفرغاً من فضة فى بردة خضراءِ
وغدت تحُفُّ به الغصونُ كأنه هُدُبٌ يحُفُّ بمقلةٍ زرقاءِ
والريح تعصفُ بالغصون وقد جرى ذهبُ الأصيلِ على لجينِ الماءِ

ومقطوعتاه فى شجرة النارنج وفى النيلوفر نموذجان صادقان من الوصف النفسى ، أما أشجار النارنج فقد كان يحبها ، ويأوى اليها وهو مختلٍ بنفسه يبحث عن نفسه كما يقول فى بيت له ، وقد وصفها ووصف ثمارها فى عددٍ من القصائد ، نذكر منها مقطوعته :

وحاملةٍ من نبات القنا أماليدَ تحمل خضرَ العذبْ
تنوب مورقة عن عذارٍ وتضحك زاهرة عن شنبْ

---

(١) الاراكة : الشجرة

وتندى بها فى مهبّ الصّبا زبرجدةٌ أثمرت بالذهبْ
تفاوح أنفاسها تارة وطوراً تغازلها من كثبْ
فتبسم فى حالةٍ عن رضا وتنظر آونةً عن غضبْ !

ومقطوعته فى النيلوفر عذبة كسابقتها ، وفيها يقول :

وبركةٍ تزهو بنيلوفر نسيمهُ يشبه رَوْحَ الحبيبْ
حتى إذا الليلُ دنا وقتهُ ومالتِ الشمسُ لعينِ المغيبْ
أطبقَ جفنيهِ على إلفهِ وغاص فى الماء حذارَ الرقيبْ

* * *

وقد حفل القرن الخامس الهجرى بشاعر فريد آخر من شعراء الأندلس هو عبد الجبار بن حمديس ، وهو من شعراء الطبيعة الوصافين المجيدين ، وله قطع رصينة فى الطبيعة ، وقد برع وصف البرك والأنهار والقصور والتماثيل . ومن أشهر ما قال قصيدته التى وصف فيها داراً بناها المنصور بن أعلى الناس ثم ذكر بركة عليها أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها الماء ، وأسوداً على حافتها تقذف كذلك بالمياه، جاء فيها :

وضراغم سكنت عرينَ رياسةٍ تركت خريرَ الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النضارُ جسومَها وأذاب فى أفواهها البلورا
أُسْدٌ كأنّ سكونها متحركٌ فى النفسِ لو وجدتْ هناك مثيرا

وقصيدته المشهورة فى وصف بركة يجرى إليها الماء ، وهى قصيدة طويلة جاء فيها قوله :

فى بركةٍ قامت على حافاتها أُسْدٌ تذلّ لعزةِ السلطان
نزعت الى ظلم النفوس نفوسُها فلذلك انتزعت من الأبدان
وكأنما الحياتُ من أفواهها يطرحن أنفسهنّ فى غدران

فمن هذين النموذجين يتضح أن ابن حمديس كانت له معانٍ متبكرة ، وأوصافٌ بعيدة الغور والخيال ، وهو وإن كان أعمق تفكيراً من ابن خفاجة ، فان هذا الأخير كان ألهبَ شعوراً ، وأكثر لهفة على جمال الطبيعة ، وأعذب شاعرية من ابن حمديس .

* * *

ولقد ساهم الشعراء المصريون فى أدب الطبيعة بنصيب كبير ، وذلك من عهدٍ بعيدٍ ، فكان ابن وكيع الضبي فى القرن الرابع الهجرى ممن تغنوا بحب الطبيعة ، وله أرجوزة مزدوجة فى فصول العام يفضل فيها الربيع على سائر الفصول . وقد وقعنا على قصيدة خفيفة الظل والهواء تماثل فى روحها الروح المصرية الصافية الزكية ، يقول فيها :

رب ليل سهرتُهُ مفكراً فى امتدادهْ
كلما زدتُ رعيَه زادنى من سوادهْ
فتبينتُ أنّه تائهٌ فى رقادهْ
أو تفانت نجومُه فبدا فى حدادهْ

وله قصائد أخرى رقيقة الطبع ، ومنها القصيدة التى مطلعها :

غرَّدَ الطير فنبهْ من نَعسْ وأدر كأسك فالعيشُ خُلَسْ

وقصيدته الظريفة فى الجوزاء :

قمْ فاسقنى صافيةً تهتك جنح الغسقِ
أما ترى الصبح بدا فى ثوب ليلٍ خَلقِ؟
أما ترى جوزاءه كأنها فى الأفقِ
منطقة من ذهَبٍ فوق قباء أزرقِ؟

وهذه القصائد الحلوة هى من وحى الطبيعة المصرية وبخاصة نيلها المقدس

الذى له أثرٌ مأثورٌ فى تغذية الذوق وتهذيبه ، ويظهر هـذا الأثر فى الشعراء الوافـدين على مصر ، وفى تلطف ديباجتهم عنـد ما يشهدون بهاء متنزهات مصر ، وبهجة أجوائها ، وعظمة نيلها .

ورجعةٌ عاجلةٌ إلى تاريخ مصر الأدبى تظهرنا على أدب طبيعى له قيمته : فالقرن السادس الهجرى حفل بلمة من الشعراء ومنهم ابن سناء المُلك ، وقد كان شاعراً فنَّاناً ، وله أخيلة بديعة[1] ، ولابن الساعاتى ديوانه اللطيف الموسوم بمقطعات النيل ، وله ديوان آخر جيد تناول فيه مقطوعات الطبيعة ، ونذكر له على سبيـل المثال هذه القطعـة اللطيفـة يصف فيهـا ليلة قضاها بأسيوط ، قال :

لله يومٌ فى (سُيوط) وليلةٌ صرفُ الزمان بأختها لا يغلَطُ
بتنا وعمرُ الليل فى غُلوائه وله بنور البدر فـرعٌ أشمطُ
والظلُّ فى تلك الغصون كلؤلؤٍ رطبٍ يصافحـه النسيمُ فيسقُط
والطيرُ تقرأ والغديرُ صحيفةٌ والريحُ تكتبُ والغمامُ ينقطُ

وهناك كوكبة أخرى من الشعراء تلألأت فى العصر التركى رغم ما غام على الأدب من غمام وضباب ، ونذكر من هؤلاء الشعراء ابن نباته المصرى ، والشاعر الوجدانى المصرى الشاعر الظريف ، وابن مطروح وبهاء الدين زهير . وشعر هؤلاء الشعراء عذب سهل ، تحرر فى أغلبـه من الترصيع والزينـة اللفظية التى كانت دأب شعراء العصر التركى ، ونكتفى هنا بذكر نموذج من شعر البهاء زهير ، قال :

لله بستـانى وما قَضَّيتُ فيه من المآربْ
لهـفى على زَمَنى به والعيشُ مخضرُّ الجوانبْ

(١) مثل وصفه للشمس

ولكم بكرتُ له وقد بكرتْ له أيدى السحائبْ
فيروقنى والجوُّ منـ ـه ساكن والقطْر ساكبْ
والطلّ فى أغصانه يحكى عقوداً فى ترائبْ
وتفتحت أزهارُه فتأرجت من كلِّ جانبْ
وبدا على دوحاته ثمرٌ كأذناب الثعالبْ
وكأنما آصالهُ ذهبٌ على الأوراق ذائبْ!

وله أيضاً فى الوصف :

نزلنا شاطىء (النيل) على بُسْطِ الأزاهيرِ
وقد أضحى له بالمو ج وجهٌ ذو أسارير
وفى الشّط حبابٌ مثـ ـل أنصافِ القوارير

فهذان النموذجان هما نفحةٌ من نفحات الطبيعة المصرية وآثارها العبقة على العبقرية المصرية ، ولو تقدمنا فى عصر الظلام الأدبى لوجدنا شعلات مصرية تضىء فى القرن العاشر والحادى العشر الهجرى ، ولوقعنا على شعراء مصريين كانوا يمزجون نفثات الطبيعة بأغراضهم الشعرية ، ونذكر من هؤلاء شرف الدين الأصيلى ، ومحمد أحمد الحتاوى المصرى الذى له ديوان شعر جيد النظم وقد وصف مرجة دمشق بأبيات رقيقة نذكر منها :

بصبا المرجة المبلل ذيلهْ علـل القلب علّ يبرد ويـلهْ
ومُر الروحَ أن تسيل دموعاً إن أبى الجفنُ أن يعينك سيلهْ

ونذكر الشاعر المصرى شهاب الدين الخفاجى صاحب الريحانة وهو ترجمة لنفسه ، وله شغفٌ بمزج الطبيعة فى أشعاره إذا قال فى الخمر أو فى حالاته النفسية . يقول :

قبّلتُ مصطحباً شفاهَ الأكؤسِ والصبحُ يبسم لى بثغرِ العسِ

حتى غدت منه الغزالةُ واختفى مساءُ الدجى عند الجوارى الكُنَّسِ

وفى قصيدة نفسية يقول :

فلكم قطفتُ ثمارَ لهو أينعتْ وغفلتُ عما قد جنى الزمنُ المُسى
وطردتُ أمالى براحةِ عِفَّتى إن التمنى رأسُ مال المفلسِ
وكحلتُ طرفى بالسهاد صبابة ووهبت نومى للعيون النُعَّسِ
ونظرتُ خدَّ الورد لما احمرَّ من خجلٍ وقد بهتتْ عيونُ النرجسِ

وقد سُررنا إذ وقعنا لهذا الشاعر على معانٍ روحية ، وتعابير طليقة ، فمن ذلك نعته للسُّحب بأن لها عواطف ، يقول :

سقى الله هاتيكَ الربى سحبَ راحةٍ لها نسماتٌ من عواطفها تحدو !

* * *

ولن يغطى إعجابنا بمن ذكرنا من المصريين فى العصر التركى على أن نشيد شعراء البلاد الأخرى من الحجازيين والشآميين ، ولهؤلاء الآخرين شعر لا يستهان به فى العصر التركى ، وذلك لما امتازت به بلادهم من رياض ، وجبال وثلوج ، وأمطار ، ومَراءٍ طبيعية لا تسخو بها الطبيعة المصرية ، نذكر من بين شعرائهم بدر الدين الذهبى ، وله شعر فى الطبيعة ممتزج بشعره الوجدانى ، فها هو ذا يقول :

عرِّجْ على الروض يا نديمى ومِلْ الى ظِلِّه الظليلْ
فازهرُ يلقاك فى ابتسامٍ والريحُ تلقاك بالقبولْ

ولا تنسَ ابن الوردى ، وهو من المغرمين بالتورية شأن أدباء العصر التركى . ومن شواهد شعره قوله فى الساقية :

ناعورةٌ مذعورةٌ ولهانةٌ وحائرهْ
الماءُ فوق كتفها وهى عليه دائرهْ

ولأميته المشهورة التى مطلعها :

اعتزلْ ذكرَ الأغانى والغزلْ وقل الفصلَ وجانبْ من هزلْ

وفيها يمزج نصائحه بمعانى الطبيعة ، مثال ذلك قوله :

قد يسود المرء من غير أبٍ وبحسن السبك قد ينفى الزغلْ
إنما الوردُ من الشوكِ وما ينبت النرجسُ إلا من بصلْ !

وقوله فى القصيدة نفسها :

حبك الأوطانَ عجزٌ ظاهرٌ فاغترب تلقَ عن الأهل بدلْ
فبمكثِ الماءِ يبقى آسناً وسُرَى البدر به البدرُ اكتملْ

ونذكر من شعرائهم فى أواخر العصر التركى ، حيث كانت تخيم على الأدب الظلال ، بعضَ نجوم الشعراء ، ومنهم حسن الشهيد وفتح الله البيلونى وفتح الله بن النحاس ، وقد كان لهذا الأخير شعر سهل جزل ، وله بعض قصائد زاوج فيها بين عاطفة الحب والطبيعة ، وخلط المدح بالطبيعة . ومن ذلك قوله :

أخشى يحسّ بنا النسيمُ فيخبر الحى الأغنّا
ويولد الوسواس لى جرسُ الحلىّ أذا أرنّا
فتقول مسكين المتيّم بالنسيم يُسىءُ ظنّا

ومما هو جدير بالاعجاب ترنم هذا الشاعر بمرائى الطبيعة وأحداثها فى قصائد مستقلة ، فمن ذلك قوله يصف بركة :

أنظر البركة التى تتراءى لمحبى الرياض كالمرآةِ
ترَ خدّاً من اللجين تحلّى بعذارٍ من انعكاسِ النباتِ

وتعدّ قصيدته فى وصف الربيع من القصائد الفريدة ، بل الخرائد العصماء .

اسمع اليه يقول :

نثر الربيعُ ذخائرَ النوّا ر من جيب الغؤادى
وكسا الربا حللاً فسوا ضلها تجرّ على الوهادِ
وكأن أنفاس الجنا ن تنفّست عنها البوادى
والزيزفون يفتّ غا لية مضمخة بجادى
يلقى بها للروض فى ورق كأجنحة الجرادِ
والوردُ مخضوبُ البنا ن مضرج الوجناتِ نادِ
نصبت له سرر الزبر جد والخيام بكل وادِ
حرسته شوكةُ حُسْنهِ من أن تمدّ له الأيادى :
والعندليبُ أمامه بفصيح لغمتهِ ينادى
مَن رام يعبث بالخدود فدونه خرط القتادِ !

ثم قال :

واقنعْ بظلك أو بظلّ الد وح عن ظلّ العبادِ!

ولا يقل الحجازيون عن المصريين والشوام ظرفاً ورقة وهتافاً بمرائى الطبيعة . ومن شعرائهم فى العصر التركى نظام الدين الحسينى وقد وصف أكثر قرى الطائف ومتنزهاتها ، ومن عيون قصائده نذكر قصيدة كتبها إلى أحد الأدباء مطلعها :

ذلك البانُ والحمى والمصلّى فقفْ الركبَ ساعةً نتملّى

ونذكر من الأدباء السيد أحمد الحسينى ، وله قصيدة لطيفة مزجَ فيها الحب بالطبيعة ، قال :

وزائرةٍ والبدرُ يتبعها وَهْنا ونورُ سناها من سنا نورهِ أسنى

رداح لها فى الحسن أعظمُ آيةٍ تراها إذا أقبلت تخجل البدرا
وإن لاح برق من نواحى ديارها أحل بقلبى المستهام بها حزنا

وللقاضى محيى الدين بن قرناص قصائد وجدانية لطيفة ، ومن هذه قصيدة له محتشمة ، موسيقية النغم ، جمعت بين الوجدان والطبيعة جاء فيها :

وحديقةٍ غناء ينتظم الندى بفروعها كالدرّ فى الأسلاكِ
والبدرُ من خللِ الغصونِ كأنه وجهُ المليح يطلّ من شباكِ !

ونختم فى النهاية بقصيدة مفردة للشاعر المكى فخر الدين أبى بكر الخاتونى ، وقد قال فى وصف زهر معروف (بالصدبرق) :

إلى صدبرقةٍ ما زلتُ أعشو لظنى أنها بالروضِ جذوهْ
ومن ولهى بحبِّ الزهر أنى إذا لاحتْ لعينى قلت زهوهْ

وهذان البيتان يدلان على أن هذا الشاعر كانت تشتعل بقلبه جذوة نحو الطبيعة ، وأن هذه الجذوة التى خفقت بالقلوب العربية والمصرية والشامية فى عصر تدهور الأدب وتهافته ، وانبثق ضياؤها فى العصور الذهبية الأولى للأدب العربى ، هذه الجذوة لم تومض فى قلوب الأدباء الغربيين إلا فى أواخر القرن السادس ، كما سنفصل ذلك فيما بعد .

* * *

ولا أعتبر نفسى منصفاً اذا لم أنوّه بأن هذا البحث ليس صورة كاملة لأدب الطبيعة عند العرب ، وإنما هو خطوط لهذا الأدب ، وقطرات من بحره ، ونجمات فى سمائه ، فقد أتينا على ذكر بعض أعلام الأدباء والشعراء ، وأثبتنا بنماذج من أقوالهم حسب ترسيم البحث ، وتركنا للباحث الأدبى درس أعلام أخرى .

ولا يفوتنا أن نقول إن الذين آثرناهم بالذكر هم من أدباء العرب والمصريين والشاميين الذين غلب اللونُ الطبيعى على شعرهم ، وإن كان ممن لم نذكر أعلامٌ برزوا فى نواحٍ أخرى مثل أبى العلاء المعرى ؛ فأغلبُ شعره ينزع الى الفلسفة ، ولم يخل من شعر الطبيعة ، ووصف مخلوقاتها ومَرائيها ، ومزج هذه الأوصاف بآرائه الفلسفية ، فلا ننسَ له مثلاً وصفه للنجوم ولسهيل وللقمر ، وللفلك الذى يخاطبه بقوله :

يا ليت شعرى ، وهل ليت بنافعةٍ ماذا وراءك أو ما أنت يا فلكُ ؟
كم خاضَ فى إثرك الأقوامُ واختلفوا قدماً فما أوضحوا حقاً ولا تركوا
شمسٌ تغيب ويقفو إثرها قمرٌ ونورُ صبحٍ يوافى بعده حلكُ

وكثيرٌ منا قد ترنَّم بقصيدته الفلسفية الموشّاة بمعانى الطبيعة التى جاء فيها :

غيرُ مجدٍ فى ملتى واعتقادى نوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ
وشبيهٌ صوتُ النعىِّ إذا قيسَ بصوت البشيرِ فى كل نادِ
أبكتْ تلكم الحمامةُ أم غنَّتْ على فرعِ غصنها الميَّادِ ؟!

ومن الشعراء الكبار المقلين فى أوصاف الطبيعة بشار بن برد والشريف الرضى ، ولهما شعر فلسفى رصين ، وللأخير مقطوعة فى وصف الفرقدين وغيرها من كائنات الطبيعة ، ويمكن للمتوسّع الرجوع إلى كتب الأدب المفصّلة . ومن الشعراء الوجدانيين أبو نواس ولم يهتم بالطبيعة إلا قليلاً ، وقد وصف البط والنرجس والأسد ، والشاعر الغَزِل كُثَيِّرٌ وقد وصف السحابة ، ولكن سحابته لا تضارع أبداً سحابة البحترى ولا سحابة القاضى التنوخى .

وصفوةُ القول أننا إذا تعمقنا فى أمهات كتب الأدب العربى نجد أدباً للطبيعة

زاخراً ، ولا تجد مرأى من مرائيها ، ولا كائناً من كائناتها ، لم تجر ألسنة الأدباء به ، بل تجد أكثر من واحد قال فى تلك المرائى : فالقمر مثلاً وصفه أبو العلاء وأبو هلال العسكرى وابن المعتز وناجاه إبراهيم بن محمد المراوى فى مقطوعة خفيفة قال فيها :

دعْ ذا وقلْ للناس : ما طارقٌ يطرقكم جهراً ولا يتقى
فتارة ينزل تحت الثرى وتارة وسط السما يرتقى
وتارة يوجد فى مغربٍ وتارة يوجد فى مَشرقِ
وتارة تحسبُه سابحاً يسرى بشطِّ البحر كالزورقِ ؟!

كما تغنى بجمال الشمس كثيرٌ من الشعراء نذكر منهم ابن سناء الملك ، وأبا هلال العسكرى ، وغيرهما ، ووَصَفَ الليلَ عددٌ كبيرٌ من الشعراء نذكر منهم امرأ القيس ، وبشّار ، والصنوبرى ، وابن خفاجة ، كما وصف الحمامَ عددٌ عظيمٌ من الشعراء ، فلابن عبد ربه الأندلسى قصيدةٌ مفردةٌ ، وثم قصيدة وجدانية رقيقة لم نعثر على اسم قائلها وهى :

ربَّ ورقاءَ هتوفٍ فى الضحا ذاتِ شجوٍ صدحت فى فَنَنِ
ذكرتْ إلْفاً ودهراً سالفاً فبكت حزناً فهاجت حَزَنى
فبُكائى ربما أرّقها وبُكاها ربما أرّقنى
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمنى
غير أنى بالجوى أعرفها وهى أيضاً بالجوى تعرفنى

وهذه القصيدة اللطيفة هى مثالٌ للتجاوب الروحى بين هذا الشاعر العربى والطبيعة الناطقة ، وهى تحاكى قطعة أبى فراس الوجدانية التى أسلفنا ذكرها .

ولم يكن إنتاج أدباء العرب فى الطبيعة مقصوراً على الشعر ، بل كان لهم

فى النثر الطبيعى جولات وجولات : فلابن خفاجة وابن حمديس والميكالى وأبى اسحق وغيرهم قطعٌ نثرية قيمة فى الطبيعة ، ولكن أغلب ما وقعنا عليه من النثر قطعٌ إنشائية مطبوعة بطابع الفصاحة ، وليست بالقطع الفنية التأثرية التى نعجب بها ، ولهذا لم نأت بنماذج فى هذا الصدد ، واكتفينا بالنماذج الشعرية ، وهى وإن كانت قليلة إلا أنها تعطى القارىء فكرة عن أدب الطبيعة عند العرب وعن شعراء الطبيعة فى البادية وفى الأندلس ومصر والشام ، والأدبُ العربىُّ وإن لم يبلغ فى هذا الباب ما بلغه الأدبُ الغربىُّ إلا أن له فضل السبق عليه ، ويعتبر ولا شكّ مفخرة للقرون الأدبية الماضية .

الأدب الانجليزى

وإذا كان أدب الطبيعة قد أثمر فى رمال الصحراء وفى آفاق البلاد العربية التى لم تتمتع بمثل الأجواء الغربية ، فمن السهل أن يثمر هذا الأدب عند الأوروبيين والأمريكيين .

ولعل الشاعر الريفى الكبير وليم شكسبير أول من هتف بمرائى الطبيعة فى قريته الصغيرة استراتفورد أون آفون ، وذلك فى منتصف القرن السادس عشر حيث وُلد لديه الحلمُ الطبيعى فى سن باكرة ، وبعض رواياته ملوّنة بلون طبيعى فاتن ، وخاصة روايتيه (العاصفة The Tempest) ، و (مكبث) فقد استخدم ويلات الطبيعة لتعميق حاسة الاجرام فى روح القاتل [1] إذ يقول : « فلتتأكد أن الأمواج حدثتنى بذلك وأخبرتنى عنه ، والرياح والرعد تغنت إلىّ به » ، وفى روايته (حلم منتصف ليلة صيفية) يضيف إلى الأدب

(١) كتاب (تفسير الطبيعة) لفاركهير .

ألوانَ النور والظلال ، ويشدو بأزهار انجلترة البرية ، وأقمارها المتغيّرة . وإذا اجتزنا هذا القرن إلى أوائل القرن السابع عشر ، وجدنا الشاعر الانجليزى الكبير ملتون من محبي الطبيعة ، وإنْ لم يتناول مشاهدها منفردةً إلا أنه راضَ أحلامه اليومية فى أحضانها ، والذى يُقلّب صفحات من (جنته المفقودة) يجد ما ينم عن محبته لها إذ يصف مرأى من مرائيها ، فيقول :

« عَذْبٌ نَفَسُ الصباح وشروقُ جبينه مع الطيور المبكرة الساحرة ، ومبهجةٌ هى الشمس عند ما تنشر (لأول وهلة) شعاعاتها المشرقية على الأرض الفرحة ، وعلى العشب ، والشجرة والثمره والزهرة ، تلك الشعاعات المتلألئه مع الأنداء ـ وشذيةٌ هذه الأرض الخصبة بعد الطلّ الناعم ـ وعذبٌ مجيءُ المساء الشكور اللطيف ، والليلُ الساجى بطيره الموقّر ، وهذا القمرُ الوديعُ ، ولآلىءُ السماء ... »

وكذلك احتفل بالطبيعة دريدن وپوب من أدباء القرن السابع عشر ، فكان پوب Pope يقضى أوقات فراغه بين مرائيها ، وكان يخلد دائماً إلى أشجار البلوط الهائلة . وعلى أى حال ، فان كتابات هؤلاء الشعراء فى الطبيعة كانت عرضية ولم تكن على وجه الاستقلال ، ولا يمكن اعتبار هؤلاء الشعراء الكبار من شعراء الطبيعة ، لأنهم توجهوا بأدبهم إلى الانسان .

ولم يحمل علم الأدب الطبيعى إلا أدباء القرن الثامن عشر ، وعلى رأسهم تومسون فى انجلترا ، وعقبه كوپر ، وبيرنز Burns ، أما تومسون فقد كان الرائدَ الأولَ لأدب الطبيعة ، وكانت الطبيعة ملء ناظريه وقلبه حتى وُسِم بشاعر القرية والحقل

وقد أشاد تومسون بجمال الطبيعة ومناظرها الفخمة العظيمة ، فكتب قطعة عن « الشتاء » من الشعر المرسل ثم قفاها بقطع أخرى عن «الصيف»

و« الربيع » و« الخريف » ، ونشرها فى مجموعة أسماها (الفصول) وكانت من أركان شهرته ؛ وقد أثنى فولتير على تومسون فى خطاب أرسله إلى ديبو فقال :

« تعرّفتُ به عندما كنتُ فى انجلترة ، وفطنتُ الى عبقريته وبساطته العظيمة ، وأحببتُ فيه الشاعر والفيلسوف الحقيق ، وهاك من شعره أبياتاً فى « الصيف » :

« بدا الصباحُ بعينه الوديعة ، وأرسلت أمّ الندى
فى مطلعها شعاعات فى المشرق الأرقط ، ثم نشرت
فوق الأثير ضياءها المتوقد .. ..
وبخطى سريعة تقهقر الليلُ الأسمر ، وتدفقّ النهارُ
الفتىُّ ، وبسط كلّ المناظر الخضراء أمام العيون .. »

ويُعتبر هذا الشاعر مدرسةً لشعراء جيله ، إذ تأثر به من شعراء فرنسا ديليل ـ وروشيه Roucher ـ وقد حذا ديليل فى قصيدته « رجل الحقل » حذو تومسون فى الحملة على القسوة التى توقّع على الماشية ، فقال فى قصيدة له :

« أيها القساةُ ، ماذا فعلت الأغنامُ البريئةُ
وماذا فعل العصفورُ ؟ ! »

وكذلك كان روشيه (الذى سمّاه الفرنسيون « عصفور الليل ») من تلاميذ تومسون الانجليزى ، وقد حمل على قسوة الانسان محتذياً أستاذه . قال فى قصيدة « الأشهر » les mois :

« قِفْ أيها الانسانُ الشَّرِهُ ، دعْ ثورتكَ
فالثورُ والأسودُ تركت بربريتها » (١)

---

(١) يراجع كتاب
The Origin of French Romanticism. By Finch & Peers.

وأعقب تومسون ، وليام كوبر Cowper ، فكتب ستّ قصائد متتالية يصف فيها جولاته الريفية ، وقد انسجمت روعة شعره مع قوة شخصيته ، وهو من شعراء الطبيعة الوجدانيين ، إلا أن الحزن كان يصبغ شعره . اسمع اليه يقول فى قطعة له تنبض بروحه الحزينة وعنوانها : « مجمع الأشجار » Shrubberry :

« أوه أيتها الظلال السعيدة ، إلىّ أنا التاعس
ياصديقة السلام ، ولست بالصديقة
لكم يسوءنى المنظر الذى يهب الراحة
والقلب الذى لا يرتضى الراحة !
وهذا المجرى الزجاجى ، وهذه الصنوبرة الفارغة
وهذه الأشجار المرتعدة فى النسيم
قادرة على أن تُسكّن روحاً أقل كلوماً من روحى »

ومن شباب اسكتلنده الشعراء الشاعر المبدع بيرنز ، وهو من أبناء الطبيعة المتجاوبين معها ، وقد خلعت عليه الطبيعة شخصيتها ، فتعلم منها المسرة والأمل فى الحياة ، وعاش بين أحضانها أغلب عمره ، ولن ينسى أحدٌ قطعته البديعة « زهرة اللؤلؤ Daisy » ، وهو من أول الشعراء الذين تنبهوا إلى هذه الزهرة فى حقول اسكتلندة ، وقد خاطبها فى قصيدته خطاباً شعرياً جميلاً . وربما كان وردزورث فى قطعته عن تلك الزهرة من المتأثرين بهذا الشاعر الشاب ، ولا يظن شداةُ الأدب الانجليزى أن بيرنز لم يشعر بالسعادة فى حضن الطبيعة ، لأنه كان يقول فى بعض قصائده أنه يبدو مهموماً والشاطىء مبتهج ، والطيور سعيدة مغردة ، لأن هذه الخواطر هى بمثابة تقصية للهموم ، وطلب للسلاة :

« كيف تغنين أيتها الطيور ، وأنا أبدو متعباً مليئاً بالهموم ؟ »

ويقول أحدُ الباحثين إن أدباء فرنسا الطبيعيين فى القرن الثامن عشر ، قد تأثروا الى حدٍّ كبيرٍ بكتابات الأدباء الانجليز الآنفى الذكر وبغيرهم ، ومن هؤلاء المتأثرين الأديب الفرنسى المثقف ديدرو Diderot ، والأديب الفرنسى الشهير روسو ، وهما من أعلام الحركة الرومانتيكية ، كما تأثر أيضاً فولتير ، وبرناردان دى سان بيير ، وهؤلاء الأدباء العظام حوّلوا الروح الأدبية الى عبادة الطبيعة ، فنشر ديدرو هذه الروح فى رواياته التمثيلية وفى كتاباته ، ولكن دراستنا لديدرو تظهرنا على أنه كان يحب الطبيعة بقلبه ، ويحبها لذاتها سواء أكانت جميلة أم مقفرة ، ويحبها لأثرها الذى يورث الهدوء والنبل أى أنه أحبها حباً رومانتيكياً ، إذ يقول لقرّائه :

« لقد رأيتم الغروبَ مئات المرات ، وشهدتم ومضَ النجوم ، وسمعتم الريف يردد أغانى العصافير ، ولكن مَن منكم شعر أن ضجة النهار جعلت صمت الليل أكثر سحراً ؟ »

أما روسو فقد فُتن بالطبيعة وأحبها لأنها خير فى نظره من المدنية ، وكتب روايته (هيلواز الجديدة) ، وأثبت فيها مبدأ طيبة الطبيعة ، وسخر من حالة الانسانية فى المدنية . وقد نظر هذا الفيلسوف الى الطبيعة لا كمشهد جميل ، بل كينبوع حيٍّ يُستمد منه العزاء والقوة ، كما فعل ابن خفاجة . وكم كان يلذ لهذا الفيلسوف أن يجول منفرداً ، لا يعكر صفوه صوت ، ولا تحدوه إلا أصوات العصافير ، وهدير السيول ، وثرثرة المجارى الصغيرة ، وعنده أن أسعد الساعات هى التى قضاها فى العزلة ومع الطبيعة . يقول فى خطاب له الى مالشرب :

« إن أسعد أيام حياتى ، هى تلك التى قضيتها فى عزلتى ، وفى جولاتى ،

تلك الأيام الذهبية الذاهبة اللذيذة التى قضيتها وحدى ، مع نفسى ، مع مساعدتى ، مع كلبى المحبوب ، مع قطتى العجوز ، مع عصافير القرية ، وشجيرات الغابة ، مع الطبيعة كلها ، ومع الخالق ! »

وثالثُ هؤلاء الأدباء الكبار ، ممن حنوا للطبيعة ، الأديبُ الفرنسى الكبير برناردان دى سان بيير ، وتكاد تلمس أثر الطبيعة العاطفى فى بطلى روايته (بول وفرجينى) وفيها صوَّر ألوان الطبيعة تصويراً صادقاً ، ومن ذلك أيضاً وصفُه لمرأى الفجر :

« رأينا فى السماء بعضَ سحب بيضاء ، وأخرى فضية ، وبدا فى جانب الأفق احمرارٌ قوىّ ، وبدت صفحة المشرق كلها فى سواد » .

ولهذا الأديب كتاب (دراسات الطبيعة) ، وكتابته تحررت من الآراء الحسية التى نزع اليها كثيرٌ ممن سبقه من أدباء الطبيعة ، وقد ماست بقلبه عاطفة الطبيعة ، وكانت الطبيعة تتحدث اليه بلهجة لذيذة تذهب عن نفسه الكدر والتعاسة !

* * *

وقد مهد الأدباء السابقون مع أدباء الألمان وعلى رأسهم جيت وشيلر طريقَ المجد لأدب الطبيعة فى القرن التاسع عشر ، واتسع أفق هذا الأدب بما أنتج العلم من حقائق طبيعية ، وما كشفَ من أسرار غامضة ، وتنزَّلت على أدباء هذا القرن فى انجلترة وفرنسا أعذب الالهامات ، وأدقّ الاحساسات : فما ارتعشت ورقةٌ فى الهواء ، ولا بُهت ضوء فى الأثير ، ولا لمعت لؤلؤة فى الأفق ، ولا تصوحت بنفسجة ، ولا كشف أقحوانة عن ثوبها القرمزى ، إلا جذبت عيونهم هذه المشاهد ، ونبضت بها قلوبهم !

ففى شروق القرن التاسع عشر زهت انجلترة بأدباء عظام ، قطعوا جزءا

من عمرهم فى القرن الثامن عشر ، نذكر من هؤلاء الروائى الانجليزى سكوت الذى أحبَّ الريف ، ووصفه وصفاً حياً رائعاً فى رواياته ، وقد تأثر سكوت بمؤلفات جيت الألمانى وشيلر تأثراً كبيراً ، والشاعر الانجليزى بيرون وقد سُحر بمرأى الطبيعة وسعد فى جوها الطليق ، وكتب أحسن رواياته فى صحبتها وتحت تأثير كتّاب الألمان ، وأوصافه للجبال وعظمتها ، والبحار وثورتها ، والشلالات ومعجزتها ، وخفايا الليل والظلام ، من الأوصاف الفذة . وأكثر القارئين يذكرون قطعته الشهيرة عن «البحر» التى جاء فى إحدى فقراتها :

فى الغابات الوعرة لذة
وعلى الشاطىء المنعزل فرحة
وعند البحر العميق ألفة
وفى هديره موسيقى
إنى أحب الطبيعة أكثر من الأنسان
فتدفَّقْ أيها المحيط الأزرق القاتم ـ تَدَفَّقْ !

وأخشى أن أضيع حيوية شعر بيرون بالترجمة ، ويمكن لحب أدبه أن يرجع الى ديوانه الكبير . ونضع إلى جانب بيرون شاعراً انجليزياً من محبى الطبيعة ، متباين المزاج ، والاتجاه معه ، وهو الشاعر وليام بليك فقد جمع إلى الموسيقى الغريبة الشعرية ، النزعة الصوفية ، واندمج فى العزلة أكثر من بيرون ، وتعزى بالأمل والايمان فيها ، وأحب الطفولة والحيوان ، وتناول أدقَّ مرائى الطبيعة مخالفاً فى هذا بيرون . نذكر له فى هذا الصدد قطعته « الوردة العليلة » The Sick Rose التى خاطبها فى انفعال شعرى فقال :

أمريضةٌ أيتها الوردة ؟
هل الدودةُ غيرُ المنظورةِ التى تطيرُ فى الليل

وفى الزوبعة العاصفة وجدت سبيلاً
إلى تاجك القرمزىّ الفرح
فأتلفت حياتك بحبها السرّى المظلم ؟ !

وهذا الشاعر دُنيا من المعانى الدقيقة ، ومن العسير نقل قصائده الى العربية . وشعره الطبيعى ، وإن رَقّ وسما ، لم يكن أداة مجده الفنى ، وإنما شعره فى « الطفولة » وشعره فى « الحيوان » هما مظهر هذا المجد .

وربما اعتُبر الشاعر الانجليزى وردزورث شاعر الطبيعة الفَرْد ، وهذا الشاعر عالم آخر ، لأنه يتنقل فى شعره من الملاحظة والوصف إلى الخيال وإلى التأمل ، وإلى الحكم على الأشياء ، وقد امتاز بوصفه لروح المرائى . وكانت محبته للطبيعة مثالية ، فسواء أكانت حزينة أم مشرقة ، فانها كما يقول لا تعلى أرواحنا فقط ، بل توحى إلى نفوسنا وتهذبها . يقول فى هذا الصدد :

« لم تخطئ الطبيعة أبداً القلب الذى أحبّها ، وميزتها فى حياتنا أنها تقودنا من فرحة لفرحة ، لأنها تحبو عقلنا الباطنى المعرفة ، وتؤثرفينا بالهدوء والجمال ، وتغذونا بالأفكار السامية — حتى أن ألسنة السوء ، والأحكام الطائشة ، وقالة الأنانيين ، والتحايا العارية عن الشفقة ، والأحاديث اليومية الغامّة ، هذه كلها لن تعكر إيماننا البهج ، لأن كل ما نشهد فى الطبيعة ملىء بالنِّعَم » .

فهذا الشاعر الذى يحب الطبيعة باسمة أو غاضبة ، فرحة أو حزينة ، هو طراز آخر من الشعراء فى نظرته لها ، ونظرته نظرة الابن البار للأم الرءوم ، على حين أننا نجد فيكتور هيجو مثلاً ينظر غير هذه النظرة ، كأن يرى أن جمال الطبيعة يعمق كآبتنا ! ولوردزورت قطع كثيرة فى ديوانه عن

الطبيعة ، ومنها تقطف من غير اختيار قطعة « قطرة المساء » التى يقول فيها :

« إن قلبي يطفر فرحاً عند ما أشهد قوس قزح فى السماء – وكما طرب قلبي برؤيته فى الصغر ، لا يزال كذلك فى الكبر ! » ، وقصيدته الشهيرة فى « الخلود » تحتضن روائعَ الطبيعة ، ومما جاء فيها قوله :

أحبُّ الغدران التى تُرغى فى مَجاريها
عند ما أسير فى خفةٍ مثلها
وبهيجٌ فى ناظريَّ سناءُ اليوم الجديد
والسحبُ التى تتجمع حول الشمس الغاربة
تأخذ لونها الوقورَ من العينِ
التى ترمق فناءَ الانسان !

ومن شعراء الطبيعة المعاصرين لوردزورث الشاعر الانجليزى كولريدج ، وله تأملات أطلقها فى شعر مرسل ، ولكنها لا تتكافأ مع تأملات وردزورث وشطحاته الشعرية ، وبرغم ميل كولريدج الى التعمق فى الأشياء ، فان معانيه تبدو أقل قوة ، وصياغته أقل جمالاً من نظائرها لدى وردزورث [1] .

وقد لاحظ أحد الكتّاب [2] أن كولريدج مع وقدة عاطفة الطبيعة اللاهبة عنده مرَّ به وقت خمدت فيه هذه الوقدة ، ففى عام ١٨٢٠ ذكر أنه لا يرى فى السماء شيئاً مجيداً ! وأنه لا يتسلم من الطبيعة شيئاً من الالهام ! وأنه يتسلم ما يعطى ، وفى حياة الانسان تعيش الطبيعة ، ولا يعيش الانسان فى حياتها ، وهذه الظاهرة المريضة تفسير نفسه المتجهمة فى ذياك الحين ،

---

(١) ولوردزورث قطع أخرى فى الطبيعة نذكر منها « البلبل » و« الدوكة » و« مناجاة الرب » « والنرجس المائى »

(٢) كتاب أدموند بلندن عن « الطبيعة فى الادب » ص ٧٩

Nature in Literature.

ولكنها ظاهرة طارئة ، ولا أدلّ على ذلك من شعره الكثير الملىء بالحرارة والاخلاص للطبيعة ، ونمثل لذلك بأنشودته « إلى الطبيعة To Nature » التى يقول فيها :

« إن لعالم السموات والأزهار تأثيراتٍ عذبةً ، سأبنى معبدى
فى الحقول ، وسأجعل قبتى السماء الزرقاء ، وشذى
الزهرة البرية البخور الذى أزجيه إليك يا إلهى ! »

والذى يرجع إلى ديوان كولريدج يجد أنه مزج بين حبه الوجدانى وحبه الطبيعى فى قطعته البديعه « إلى البلبل » فخاطب البلبل فيها خطاباً منفعلاً جاء فيه :

« وغالباً ما أنشد اسمك ، وبلغة الزهو أطلق عليك اسم « مغنى
القمر ! » أيها الموسيقى العظيم والشاعر الحزين الكبير ! »

ويخيَّل إلىَّ أن الشاعر الانجليزى شيلى أكثر محبة واندماجاً فى الطبيعة من كولريدج ، وأسلوبه أكثر جمالاً وعذوبة ، وهو شاعر مخلص فى عاطفة الطبيعة ، وعاشق متيَّم ، وله فيها جولات مشهورة ، ويكفى ـ كما يقول النُقَّاد ـ أن ترفعه قصيدتاه « القبرة » « والسحابة » إلى المرتبة الشعرية العالية . وقصيدته « السحابة » نموذج رائع لشعره الطبيعى ، ونكتفى بأن نقطف من فقراتها الخمس الفقرتين الأولى والأخيرة . قال فى الفقرة الأولى بلسان السحاب :

أجلب عذبَ الرّذاذ للزهر الظامىء
والظل الخفيف للأوراق عند ما تهجع
فى أحلامها وقت الظهيرة .
ومن أجنحتى تتساقط الأندا التى توقظ

البراعم المملوءة — وكل واحدة منها
غافية على صدر أمها — وهى راقصة حول الشمس ،
وأديرُ الطاحونة ذات الصوت الصاخب
وأُبيِّضُ الوديانَ الخضراءَ تحتى ،
وأحيلها مطراً مرة أخرى
وأضحك فى مرورى برعدى !

والفقرة الأخيرة من هذه القصيدة الرائعة جرت كالآتى :

أنا ابنةُ الأرض والماء
ورضيعة السماء
أعبر خلال المحيطات والشطآن
وأتغيَّر ، ولا يلحقنى الفناء
فبعد المطر الطهور ، تعرى السماء
والرياح ، وشعاعات الشمس الوضاءة
تبنى قبة الهواء
بعد هذا ! أضحك فى صمت على تلكم الآثار الدوارس
ومن كهوف الأمطار
ومثل طفلٍ فى الرحم ، ومثل طيفٍ فى القبور
أشرق ، وأهدم كل شىء من جديد !

وهذه القصيدة بما وعت من معانٍ جميلة ، وأخيلةٍ رائعة ، وتأملات حصيفة ، وموسيقى عذبة ، هى مثالٌ لوصفه المادى . وله قطع أخرى جذابة مثل قطعة « النبت الحسَّاس » ، وهى نغمة من نغمات قلبه المتأثر بالطبيعة ، وانفعاله الشعرى النابض .

ومن معاصرى شيلى الشاعر الانجليزى الشاب كيتس Keats . وله شعر جيد فى الطبيعة ، ومن قصائده «أنشودة الى الخريف» من وحى جولة يوم الأحد فى حقول قريبة من ونشستر ، وهى قصيدة كاملة كما يقول الأدباء . وهذا الشاعر بعكس شيلى يميل الى الغموض [1] . وأعقب كيتس الشاعر جون كلير — وهو من أحسن شعراء الطبيعة ، وإن لم يبلغ مبلغ السابقين فى الشهرة — وكان يسمّى فى زمنه بالشاعر الريفى ، وله قطعة فى « الخريف » تعتبر من القطع الفنية الأصيلة جاء فيها :

أيها الخريف العذب ، إنى أحييك
تحية لا أثر فيها للرياء

Sweet Autumn! I hail thee
With welcome all unfeigned;

ويقول إن اللون الذهبى الذى يصبغ الورقة هو أمارة الفناء . وميل هذا الشاعر الى الطبيعة هو ميل ناشىء من تحوله عن حب المرأة ، فلم يجد من يحتضنه إلا هذه الأم البريئة . اسمع اليه يقول :

لاقيتها فى أخضر الوديان
حيث نقط الندى تلألىء أزاهير الغابة
والنسيم التائه قد قبّل عينيها الزرقاوين الصافيتين
وقبلت النحلة ، وسارت فى غنائها
وشعاع الشمس وجد ممرّه هناك ،
وحول عنقها وضعت سلسلة من ذهب ،
وخفيّة مثل أغنية النحلة
بقيت هناك طول الصيف

(١) أكثر الشاعر كيتس من التحدث عن القمر كأنما كان عاشقا حقيقياً له .

ولا يفوتنا أن نذكر من باب الترسيم الشاعرَ الانجليزيّ برونتج ، وهو من الشعراء المشهورين بالدقة فى الملاحظة ، ويرجع تفوّقه الأدبى إلى ملاحظة الطبيعة ، فكان يلاحظ أصغر الأشياء وأدقها : الطير على الغصن ، والقوقعة ، والنحلة ، والذبابة الخضراء ، والعنكبوت . كان يلاحظ الطبيعة فى كل شىء : فيصف الدوائر الصغيرة التى تحدثها أمواج النهر بالحلقات ، ويدعو فى شعره إلى زيارة انجلترة لمشاهدة الطبيعة هناك لترى فى الصباح كما يقول أغصان شجرة الدردار Elm tree ، والطير يغنى عليها ! وفى قطعته المشهورة « بيا تمرّ » — وهى قصة عاملة تأتى بلداتها لتقضى أوقات فراغها فى فرحة ومسرة ـ يمزج بالقطعة معانى الطبيعة فيقول :

« وكانت الدنيا ربيعاً ، واليوم صباحاً ، والله فى السماء ، وكل شىء حسن فى الوجود ! »

وشعر برونتج يكتنفه الغموض ، وقارئه يخرج منه بفكرة حائرة ، وقد تناول فى شعره الأشخاص والأخلاق ، أكثر من الموضوعات الطبيعية .

الأدب الفرنسى

إلى هنا نودع هؤلاء الشعراء ونهبط فرنسا بلد الشعر والوحى والذكاء ، وفيها تجلّت عبقرية الطبيعة على أدبائها فى القرن التاسع عشر وعلى رأسهم شاتوبريان ، ولامارتين ، وفيكتور هيجو . ولم يكن هؤلاء هم روّاد الأدب الطبيعى وحدهم ، بل كان شعراء القرن الثامن عشر ، الذين مهدوا لهؤلاء السبيل ، وقد ذكرنا منهم ديليل ، وروشيه ، فى صدد التحدث عن الشاعر الانجليزى تومسون ، ولكن هناك إلى جانب هذين شعراء آخرين احتفلوا

بالطبيعة أيما احتفال ، وفى المكان الأول منهم جان بابتست روسو ، وله نشيد عن « قدوم العام » جاء فيه :

« الكوكب الذى شاطر الأيام ، وأعارنا ضياءه ، على وشك الانتهاء ، وسيبدأ فى سير جديد ـ وبسرعة مدهشة نرى العام يمر ، وهذا العام بعده دون أن نتذكر . وأكثر الأيام إشراقاً ، تمرّ دون رجعة ، وأخصب السنين لا تكاد تبدأ حتى تنتهى .... »

وأكثر من هذا الشاعر إفاضة فى الطبيعة الشاعر الفرنسى سان لامبر Saint Lambert ، وله عدد من القصائد فى الطبيعة نذكر منها : قصيدته عن « الفصول » التى يمتدح فيها الفصول ، ويعجب بكل فصل على حدة ، وهو يغنى نشيده « بداية العام » الذى يقول فيه « إن الربيع وهب الملاحة والجمال ، والصيف أغنانا بكنوز الحصاد ... » ويقول فيه أيضاً « إننا نصير فى الطبيعة أشخاصاً آخرين : فى الربيع يخلب الفرفورُ أبصارنا ، ونعجب بالنحلة وهى تمتصّ رحيقها من الوردة وزهرة الزيزفون ... » بل إنه يرى أن الربيع يولد الحب ويغذيه فيقول فى موضوع آخر من فصوله : « الطبيعة جديرة بحضرك أيها الحب ، وعرشك موطأ الأكناف فى سرر الزهر ، والأغانى فى الجو تتلاطم ، والحيوان يتابع الحيوان ، إنه يتقارب ويتباعد ، ويعترك ويتحد ، كأنما هو معهم بروح جديدة ، ونار المتعة فى عيونه تتقد ! » وله قطعة فى «الخريف » ، وقطعة أخرى فى « سعادة الحياة الريفية » ينعت فيها الريفى البعيد عن الدنيا بالسعادة ، لأنه يغنى الأرض ، ويحترم القانون ، ويعيش محبوباً فى بيئته ، قانعاً بحالته ، وقلبه ينبض بحب الأصدقاء ، ولا يتبع هوى الأمانى ، ويربى ماشيته ، ويجمل حقله ! »

هؤلاء الشعراء وغيرهم فى القرن الثانى عشر كانوا البذرة الأولى لأدب

الطبيعة فى القرن التاسع عشر ، الذى افتتحه شاتوبريان فبذر فيه الذهبَ كما كان يقول ـ بذر ذهبَ الفكر وذهبَ الخيال !

وبفضل هذا الأديب الفنّان تلوّن الأدب الفرنسى بالعاطفة البريئة ، وبالروحانية ، ولقد تجلت نزعة الطبيعة فى أبناء وبنات أحلامه : فـفى روايته آتلا Atala ، رسم بريشته المتفوقة مراعى أمريكا وحقولها وأنهارها وغاباتها ، التى صاحبها ردحاً من الزمن ، وفى كتابه « عبقرية المسيحية » تناول فى الجزء الثالث الحديث عن « عاطفة الطبيعة » وما خلت روايته « الضحايا » من الأوصاف الطبيعية ، وهو ولا شك يعتبر أكبر رائد للأدب الطبيعى ، ويمتاز عمن سبقوه بأنه لم يكن بسيطاً فى أوصافه مثلهم ، بل كان عميقاً ، وكان يتأمل المرائى تأمل المستوعب ، ويلوّنها تلوين الصادق المخلص ، أو هو ـ كما يقول أصدقاؤه ـ « كان يصور الأشياء كما يراها ، ويراها كما يحبها ! » ، واعـترف له برناردان دى سان بيير بقوة الخيال العظيمة ، وهو وصف عادل وساحر ، كما يقول سانت بيف [1] .

وإذا امتاز شاتوبريان بالدقـة فى صُوره ، وبالرشاقة فى صياغته ، وحبـه للطبيعة ، فإن لامارتين الشاعر الفرنسى الكبير كان أكثر منه تناولاً للطبيعة ، وله شعر فياض فيها ، وبنات أحلامه الأدبية هى من آثار وحى الطبيعـة الجميلة ، فزيارته لإيطاليا أوحت إليه رواية (جرازييلا) الطليانية ، وزيارته للشرق زوّدته بالصور والمرائى الرائعة ، ولامارتين عاش فى الدوائر الاجتماعية مأخوذاً بالمثل الأعلى ، معتقداً فى السعادة والفضيلة ، فلما وجد أن هذا سرابٌ وآلٌ احتمى فى الطبيعة يروض همومه ، ويغذى أحلامه ، وفى الطبيعة نسى آلام الحب وفيها ناجى الله ! ففى تأملاته التى كتبها بعد نكبة عاطفية نجد قطعاً رائعة فى الطبيعة نذكر منها قطعتة العذبة « البحيرة » Le Lac وقد تُرجمت

---

(١) أحاديث عن الشخصيات الادبية لسانت بيف .

إلى العربية مرات ، وجاء فيها :

« أيتها البحيرة ! كاد العام ينصرم ـ وقريباً من الموجات العزيزة التى كان يجب أن تعيد النظر إليها ـ تأملى ! هأنذا آتى وحيداً لأجلس على هذا الحجر الذى شهدتها تجلس عليه !

« وأنت تهتزين على هذه الصخور العميقة ، وهكذا كنت تتكسرين على حافاتها الممزقة ، والريح تلقى الزبدَ على أمواهك وعلى قدميها المعبودتين ! »

وفى قطعة « العزلة » يتنفس لامارتين الكآبة ، ويتعزى بالجبل والنهر ومَرأى الطبيعة ، وقد جاء فيها :

« هنا يزمجر النهر ذو الأمواج المزبدة ،
إنه ينساب كالحية ويسير فى مجهول بعيد ،
وهنالك البحيرة الساجية تنشر مياهها النائمة
ونجم المساء يرتقى السماء !

وعلى هامة الجبال المكللة بالغابات السوداء يرتقى القمر فيبيض حفافى الأفق .... »

وهذه التأملات فائضة بالخواطر الطبيعية ، نذكر منها قطعة «الخريف» وهى قطعة وجدانية جليلة و«المساء» التى يطلب فيها الحب والسلام لروحه المتعبة . وهذه التأملات كانت من جنود شهرته ، وكذا كانت الانسجامات الشعرية Harmonies مترعة بالقطع الطبيعية المفردة ، منها قطعة « البلوط » وفيها يصف الانسان الزائل بأنه غدة قابلة للكسر تقع على صخرة صلدة من منقار نسر أو عقاب ، فتصير ذرة تراب تذروها الرياح . وفى قطعة « خلود الطبيعة » يقول لها : سيرى ولا تفكرى فىَّ ، يقول ذلك لأحداث الطبيعة الخالدة من شموس ونجوم وأقمار ومحيطات وأنهار ! وفى رواية (جوسلين)

نجد مقطوعات رائعة فى الطبيعة نذكر منها : « أيتها الليلة الفخمة ! » ، و« جبال الثلج » و«على الهضاب الخضراء » و« أى مشهد يا إلهى ! » وفى أكثر أعماله التى أسلفنا ذكرها نجده يتحدث عن الله فى قطعة «الله» فى التأملات ، و«روح الله» فى التأملات الجديدة و « فكرة الله » فى الانسجامات . وهذه القطع فى الطبيعة اعتبرت نوعاً من المعجزة الأدبية فى جيله ، وربما كان لامارتين فى نظرى أكثر طلاقة من الشعراء الانجليز . وهو والشاعر الفحل فيكتور هيجو يعتبران عالماً آخر يختلف عن العالم الانجليزى الذى يتصل بالحقائق ، ولا يشط به الخيال ، وأظهر ما تكون الطلاقة والتنوع فى أدب فيكتور هيجو الذى عاش فى دنيا الخيال ، وعانق المجهول ، وعجّ قلمه بالمعانى البعيدة ، والموسيقية الصاخبة . ومن مؤلفاته المشهورة ديوانه « أوراق الخريف » وهو موزّع بين الانسان والطبيعة فى موضوعاته ، ومن هذه القطع قطعته « الغصن الواهى » التى يقول فيها :

انظرى إلى هذا الغصن الواهى الأسود
والسحاب يصبّ على جذعه العارى مطراً ،
ثم انتظرى ذهابَ الشتاء وسوف ترين
ورقةً تخترق جسمَه الخشن
وسوف تسألين كيف أن برعماً مهيناً رقيقاً أخضر
ينبثق من هذا الفرع الأسود ؟!

* * *

وسلى كذلك لماذا ياحبيبتى الشابة
عند ما روحى (مع الأسف) تجمدُ وتَفْتُرُ
تنساب نفثتك إلى نفسى
ويجرى السائلُ الحىُّ فى عروقى ،

وروحي في زهرٍ تتفتح
وتلقي فجأة أشعاراً أنثرها كالورق على قدميك ؟ !

* * *

ذلك لأن لكل شيء قانوناً ، للحياة وللثروة ،
وأن الليلة المضيئة تعقبها ليالٍ غيرُ مقمرة ،
وكل ما هو أرضيٌّ له ردّاتٌ ورجعاتٌ دائمةٌ ،
ولا بدَّ للشجرة من رياح ، وللورقة من نسيم ،
وبعد البؤس ، تلمع ابتسامتك ،
ذاك شتاءٌ ، وهذا ربيعٌ !

وميزةُ فيكتور هيجو في تعدّد صُوره ، وبُعد خياله ، وطلاقة عبارته ، وهو وإن كان أقل صدقاً وأقل سرعة من لامارتين ، إلا أنه أكثر تنوعاً وطلاقة منه ومن الشعراء الانجليز الذين أتينا على ذكرهم . ونذكر من شواهد ذلك قطعة له وهو على ذروة جبل ، وأمواه المحيط أمام بصره ، يُعَبِّر عن صوت الوجود تعبيراً مطلقاً ، ويصف وصفاً لاشعورياً ما يرى وما يسمع يقول :

« أنصتت وسمعت صوتاً لا مثيلَ له ، صوتاً لم يخرج من فم ، ولا اهتزت به أذنٌ ، صوتاً عظيماً هائلاً مضطرباً ، أكثر غموضاً من الريح في الأشجار المتكسرة ، هو نشيدٌ خالدٌ غطّى الكرةَ ، وأحاط الوجودَ . . إنها مزاهر الأثير تضيع في هذا الصوت ! . . . . . »

وعلى طراز هذه الروح نجده في قطعته « الشموس الغاربة » ، ففي الفقرة الخامسه منها نجده في انفعال نابغي يعانق المجهول فيقول :

« أوه ! على الأجنحة في السحاب ، دعني أفرّ ! دعني أفرّ ! بعيداً في الأصقاع

المجهولة ، وهناك أحلم وأسبح ، دعنى أفرّ الى عوالم أخرى ! وكفانى فى الليالى العميقة ، أن أتبع نوراً أو أبحث عن كلمة ، وكفانى شكاً وحلماً ! وهذا الصوت الذى يطرق سمعى فى الأرض ، ربما أسمع أحسنَ منه فى السماء ! »

الأدب الأمريكى

ولقد أنجبَ القرنُ التاسعُ عشر فى أمريكا أدباء لهم ضلعٌ كبيرٌ فى أدب الطبيعة ومحبتها ، نذكر منهم دافيد ثورو وإمرسون وهويتمان . والأول عاش فى الطبيعة بكليته ، وهجر الحياة العامة ، وبقى على اتصال وثيق كل أيامه مع الحيوان والنبات والأرض والماء والسماء ، دون أن ينسى الكتب ، وقد حام فى الغابة وكشف ما فيها بعين رجل الطبيعة والمصور والشاعر والفيلسوف . وهو ليس مثل روسو ولا برناردان دى سان بيير ، فى أنهما أحبا الطبيعة فراراً من الانسان ، ولكنه أحبها لذاتها ، وللمعيشة فيها ، وكتب عن الحيوان والنبات ، ووصف الغابة بما جمعت من طير ووحش ونبات ، وله مؤلف عن (الحياة فى الغابات) من وحى تجاريب سنتين فى الغابة . وهذا الأديبُ كان فذاً فى خلقه ، وقد قال عنه أمرسون : إنه لم يتزوج وإنه عاش وحيداً ، ولم يذهب يوماً إلى الكنيسة ، ولم يشرب الخمر أبداً ، ولم يدخن قط ، ورفض دفعَ ضرائب الدولة ، ولم يأكل اللحم يوماً ما ! وهذا الأديب وإن عاش فى فقرٍ ، فقد عاش فى طهارةٍ واستقلالٍ ، وكان شغفُه عظيماً بهما .

وأما الأديبُ الكبيرُ إمرسون فقد توزّع بين الحياة المدنية ، والحياة الريفية ، ووفق بين الدين والديمقراطية ، وقد عاش فى الريف قريباً من بوستون ، وبقى فى خليته كملكٍ مشغوفاً بالحياة فى الحقل ، جوّالاً فى

الطبيعة ، غارساً للزهر ، واهباً نفسه للطبيعة . وفيها حلم وفكر ، واقتنص الأفكار والصور ، وله فى الطبيعة كتابان : (طريقة الطبيعة) و (الجمعية والوحدة) غنم وحيهما من الطبيعة الأمريكية ، وله فى الشعر (مذكرات الغابة Wood Notos) وقصيدة « يوم مايو » من قصائده المشهورة ، وفى مجموعة مقالاته مقال له عن « الطبيعة » Nature ملىء بالأفكار والخواطر ، دون ترتيب وتنسيق كما هى عادته فى الكتابة ، ومما جاء فى هذا المقال :

« أذهب وصديقى إلى شاطىء النهر الصغير ، وفى زورق ، أدع القرية لسياستها وشخصياتها ، وأترك كل هذه من ورائى . وأسبح فى مملكة رقيقة ، هى مملكة الغروب ، وضياء القمر ، وهنالك انسابت أجسامنا فى جمال غير مصدَّق ، وغمسنا أيدينا فى العنصر الملوَّن ، وغمرت عيوننا فى الأضواء والألوان . . . . ومن هذه المرائى عرفت ضآلة المخترعات ، وقبح المدن والقصور . »

ويخالف هذين الأديبين الشاعر والت هويتمان ، وهو دنيا قائمة بذاتها ، وطراز عجيب من أدباء الطبيعة ، وقد وضعه بعض النابهين من الكتاب فى مصاف عظماء الرجال ، وشبهوه بسقراط ، وبكونفشيوس ، وبغيرهما من القديسين ، وكان إمرسون يعتبره من هؤلاء العظام الذين سجلوا أسماءهم على صفحات التاريخ ، وقد أخرج بعد سن الخامسة والثلاثين ديواناً أسماه (أوراق العشب) Leaves of Grass ، وهو ديوان يرتعد فى اليد وليس ـ كما يقول أحد الكتاب الفرنسيين ـ كتاباً ، ولكنه رجل من لحم ودم وأعصاب وروح ! [1] وقارىء شعره يعجب من أفكاره الغريبة وخواطره المدهشة ، فانك لتراه يحيى الشيخوخة ، ويصفها بالملاحة ، وينظر لكل ما يرى بعين الجمال ، ويعدّ الموت

---

(١) كتاب (الأدب الأمريكى) لمؤلفه رجيس ميشو Régis Michaud

كالحياة ! ويدعو الى الثورة الهادئة ، فى قطعته الشهيرة « الطريق العام » . يقول للقارىء : « دع كتابك ، وللسامع دع الواعظ ، ولصاحب القضاء دع المحامى والقاضى ، وإليكم جميعاً أيها الرفاق يدى ، أهب إليكم الحب وهو أثمن من المال ، وأهب ليكم نفسى . . . فهل تهبون الىّ نفوسكم وتأتون الىّ ؟ وهل يتصل بعضنا ببعض فى الحياة ؟ »

وهويتمان فى الحق رجل إنسانى واسع الانسانية ، قبل أن يكون شاعراً ، والشعر عنده دفعة من دفعات النفس ، وزيادة عضوية . وهو لايعرف الشعر للفن ، ولكن يعرفه للمبادىء الانسانية ، فالدنيا فى نظره ملحمة ، ومرائيها وأشخاصها فقرات تلك الملحمة ، وقصائده من وحى هذه الملحمة ، ولهذا ترى تلك القصائد كلوحات المصوّر تحتضن كل شىء ، فكما تلقط الأنوار والظلال ، تلقط العربات المارّة ، والأطفال اللاعبة ، والعصافير على الأشجار ، وكل ما تلقطه عينه أو يجرى فى خاطره تنعكس صوره على لوحاته الشفّافة . ومن عيون قصائده ملحمة « أغنية نفسى » Song - of - myself وهى كافية لرفعه الى مقام الاستاذية ، وهى تضارع الآثار الأوروبية العظيمة ، وتشتمل على اثنتين وخمسين فقرة فياضة بالمعانى . ولا يمكن فهم هويتمان إلا بقراءة قصيدة كاملة له ، لأنه شاعر من نوع خاص ، ولكى نقرّب الى الذهن تفكير هذا الشاعر نذكر نتفاً من ملحمة «أغنية نفسى » . يقول فى الفقرة الأولى : « أحتفى بنفسى ، وأغنى لها ، وأسرب وحدى ، وأدعو روحى ، وأرقب عود العشب ، ولسانى وكل ذرة من دمى مكوّنة من هذه التربة ومن هذا الهواء ! » ، وفى الفقرة السادسة يقول :

« سألنى طفل ما هو العشب ؟ (وقد سعى إلىّ بحزمةٍ ملء يديه)
فكيف أحب هذا الطفل ؟ وما أعرف عن العشب أكثر منه ! لقد

تظننت أنه منديل الله ! وتظننت أنه طفل فى ذاته لأنه نتاج النبات ! »

وفى الفقرة العاشرة يندمج فى الطبيعة وينام فيها فيقول :

« وحيداً بعيداً فى القفار والجبال أصطاد ، وفى جولتى أسير مندهشاً فى خفة وبهجة . وفى الأصيل أختار مكاناً أميناً أمضى الليل فيه ، وأوقد ناراً وأشوى فريستى ، وأنام على الأوراق التى أجمعها ، وكلبى وبندقيتى إلى جانبى ! »

وعلى مثل هذا يخاطب الأرض فى الفقرة الحادية والعشرين فيقول :

« ابتسمى أيتها الأرض ذات الأنفاس الباردة ، يا أرض الأشجار النائمة المائعة ، يا أرض الشمس الغاربة والجبال المكللة بالضباب ! »

وفى الفقرة الثانية والثلاثين يحدب على الحيوان ، ويسكن اليه فيقول :

« أظن أنه يمكننى أن أعود وأعيش مع الحيوان ، إنه هادىء وساكن ، هأنذا أقف وأنظر اليه طويلاً ـ إنه لا ينتفض ، ولا يشكو حاله ـ إنه لا يربض متيقظاً فى الظلام يندب ذنوبه ! ـ ليس منه مَن هو غير قانع ، وليس فيه من به جِنة حبّ التملك ! »

وليس لهويتمان قصائد مستقلة فى الطبيعة استقلالاً تاماً ، بل إن جميع قصائده تضم وصف المرائى الطبيعية والخواطر النفسية ، وأعمال الحياة ومرافقها ، ولكننا نشعر عند قراءته أن عاطفة الطبيعة كانت تدفّ بين جوانحه . اسمع اليه يقول فى قصائده « دقات الطبل » :

« سربتُ فى غابات الشمال ، ولاحظت شلالات نياجرا ، وسحت فى البرارى ، ونمت على صدرها ، وعبرت النيفاداس ، واجتزت الهضاب ، وعبرت وسط الزوبعة ، وانتعشت بها ، وراقبت فى مسرة عواء الأمواج المهددة ! »

ومن أحسن قصائده قصيدته الطويلة « أغنية الشارع » وفيها يرسم بريشته الخفيفة فى الفقرتين الأوليين كلَّ ما يرى فى الشارع من الأشياء التافهة ، وفى فقرات أخر يذيع آراءه العجيبة ويدعو الى النظر والتأمل فيقول : « لا تحبن ـ سر فهناك أشياء مقدسة مطمورة ، أقسم لك أن هناك أشياء مقدسة أجل مما تنطق الكلمات ! » ـ وفى فقرة من الفقرات أخذ يناجى أحداث الطبيعة فقال :

« أيها الهواء الذى يساعد نفسى ليتكلم ـ وأنت أيتها الأشياء التى تجلب إلىَّ المعانى ـ وأنت أيها الضوء الذى يلفنى ، ويلفُّ جميع الاشياء فى مساواة ورقة ـ وأنت أيتها الطرق التى نالك الأَيْنُ ـ أعتقد أنه تكمن بك حياة غير مرئية ! إنك عزيزةٌ لنفسى ! »

فالرجل كما يظهر من هذه النماذج القليلة أعجوبة جيله ، وهو كما قلنا فذ بين معاصريه ، فلم يكن تفكيره مقصوراً على بيئته كما كان ثورو ـ بل كان إنسانياً بأوسع معنى ، ولم يكن شعورياً كامرسون ، بل كان أكثر ما يكون فى حالة غير واعية ، وأسلوبه الشعرى لا يماثل أى أسلوب سبقه أو لحقه من أساليب الشعراء ، فهو لا يعتبر نثراً ولا شعراً مُقَفًّى ، ولهذا رأينا بعض النقاد ينتقص شعره ، ويضع شخصه فى ثبت المجانين ! وهذا رأى لا نوافق عليه ، لأن الرجل كانت تجيش بنفسه رسالة سامية ووجد الشعر أداة ، فعبَّر به عن رسالته تعبيراً طبيعياً مجرداً كل التجرد عن الترتيب أو التنميق أو الوحدة ، ويكفى أنه مع رسالته الانسانية يدعونا إلى الصدق وإلى الاصالة الأدبية ، وإلى التحلل من قيود الماضى ومن الركون إلى تراث الموتى .

وقد ظهر نفوذ هويتمان بعد موته فى الشعر الأمريكى بعد أن كان الأمريكيون

يقلدون شعراء الانجليز وعلى رأسهم كيتس وشيلى وتينسون وبرونتج ، وبخاصة وردزورث . ثم ظهر على شوطىء الباسفيك شاعر أصيل اسمه جوكوين ميلر Joaquin Miller (١٨٤١ ـ ١٩١٣) فكشف آفاقاً جديدة للشعر الأمريكى ، واهتم بالمسائل الجنسية ، ودعا الى الطبيعة والى الحياة البسيطة . واذا تتبعت الشعر الحديث بعد سنة ١٩١٣ لمع أمامك فى الأفق الشاعر روبرت فروست Frost وهو محب للطبيعة والفلسفة ، وقد تلوّن شعره بالحقائق الواقعة . وله قصائد فى الطبيعة نذكر منها « المجرى الغربى الجارى » و« نغمة الصوت » . وظهر فى عام ١٩١٤ الشعر الحر ، وناجى الشعراءُ الطبيعةَ فى سهولة ويسر ، ومن الشعراء المتحررين نذكر الشاعر سنكلر لويس ، وله قطعة « الشارع الأصلى » وهى تحاكى النثر . ثم ظهر فى الوقت الحاضر كارل ساندبيرج ، وروبنسون . أما الشاعر ساندبيرج فقد تأثر بأقاصيص العامة الشائعة وله نزعة طبيعية ، ونذكر من أعماله قصيدته « الصباح السعيد Good Morning » وقد جمعت الى العامية روحاً متصوفة . ثم ظهرت فى العصر الحديث الحركة الليريكية وقد قامت بها الشاعرات ، ومن ألمعهنّ الشاعرة إميلى ديكنسون Emily Dickinson ، وتعدّ بلا نزاع من أعظم شاعرات أمريكا ، وقد اهتمت بالطبيعة وفسرت فصولها . وتحدثت عن الفجر ، والسحابة ، والطير ، والشعاع على الوديان ، وشعرُها ينمّ عن كبت العاطفة ويضىء بجمال الفكر .

الأدب الانجليزى الحديث

ولا يعجب القارىء إذا ألفانا قد احتفلنا نسبياً بأدب الطبيعة فى القرن التاسع عشر ، لأنه فى الحقيقة القرن الذى يمكن اعتباره

البذرة الصالحة لشجرة هذا الأدب ، والذى فيه ماست عاطفة الطبيعة بقلوب الأدباء والشعراء ، ونبضت فيهم روحها ، بل تقوّت فى رفقتها ذاتيتهم ، وكبرت شخصيتهم الفنية . فشعروا فى أحضانها بتوقد انفعالاتهم ، وبكونية هذا الانفعال ، كما شعر الشاعر الطبيعى وردزورث ، والشاعر الانسانى الأصيل هويتمان ، وحام بأغلبهم انفعالُ الجذل . ومن بينهم الشاعر الانجليزى كوپر الذى كان يجول على الشاطىء المجرى ، ويسير على أعواد العشب ، فيشعر بفرح وعُجب عظيمين يقويان ذاتيته . ووجد كثير من أدباء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الهدوء العقلى وسمات الخلق النبيلة فى الطبيعة العظيمة ، فتعلموا الجودَ بلا مَنٍّ ، والحبَّ بلا إثمٍ ، وقابلوا أحداث الحياة برواقية الفلاسفة وصوفية المتزهدين ، وتعلموا قوة المراس وسر المقاومة ، فرضوا بالحياة بل أحبوها . وأوحت الطبيعة الى كثير من هؤلاء الأدباء عبادة الله وحب الفضيلة وفاضت تآليفهم بهذه الروح ، ومن هؤلاء فوجان وتومسون الانجليزيان ، وهالير السويسرى ، ورسو الفرنسى ، وهولباخ الألمانى ، وكذا كان شاتوبريان ولامارتين وهيجو من الأتقياء العابدين .

فاذا خطونا إلى القرن العشرين وجدنا أدباء الانجليز تدبّ فى قلوبهم عاطفة الطبيعة مثل الأدباء السالفين ، ولكن نظرتهم لها صارت أدق وأعمق ، وإنتاجهم الأدبى أدنى إلى الفن ، وإن كانت صياغتهم أقل جمالاً ، ومعانيهم أكثر غموضاً ، وطائفة منهم لم تعد تهتم بالنظرة الروحية الأولى ، بل طغت موجةُ الشكِّ فى تضاعيف الأدب الحديث ، فاذا ألقينا النظر إلى شعر بريدجز Bridges وجدناه ينظر إلى الألوهة كمذهب فلسفى محترم ، وأما الشاعر الانجليزى Hardy فيعلن الشك فى جرأة ، والشاعر إدوارد توماس يقف من الحياة موقف الحائر العاجز

عن تفسيرها ، ولكنّا نجد الفنّ يتفيأ ظلال قصائدهم ، ونجد تجارب شعرية فنية فى أدبهم لم يحلم بها أدباء القرنين السالفين ، ونذكر من شعراء الطبيعة المحدثين الشاعر الانجليزى شارلس سورلى Sorley ، وشغفه عظيم بالطبيعة ، وبخاصة الحياة فى الريف . وفى الريف شرب الالهامَ وأمكنه أن يصل إلى معنى الوجود وغايته ، ونمثل له بقطعته الجميلة « إلى التلال والوديان » التى يقول عنها أنها تنفجر فى أغنية ! وقطعته « الغدران » التى يقول فيها إن لها خريراً يتحدث طول اليوم ، ولا أحد منا سيفهم ما تقول حتى يدهمنا الموت ! ـ وأغلب الشعراء الذين توزّعوا فى موضوعاتهم ، وتناولوا الانسان والحياة ، لم ينسوا الطبيعة ، ونذكر من بينهم الشاعر الانجليزى والتر دى لامير Walter de La Mare ، ونمثل له بقطعتين من قطعه الطبيعية الفنية ومنها « نفسى » Myself التى يقول فيها :

« هنالك فى الحديقة التى لوّنها الخريف بالسمرة ، وتحت الأغصان الهائلة ، والخضرة الممتدة على كل جانب ، وبين الطرق المنعزلة ، طفلٌ صغيرٌ مثلى ، له وجهٌ وأيدٍ مثلى ، يلعب دائماً فى صمت ـ وبعد أن تسكن أطيار الحديقة عن الغناء فى الشجر ، وتصمت الأصوات والرياح والنحل ، وترتدى الأشياء رداء أسمر أبقى وحيداً ، ويتيماً صامتاً ، ألعبُ فى مساء الحديقة ونفسى معى ! »

وقطعة « الظل » وهى من القطع الفنية التى تغمض على الأفهام وفيها يقول :

« حتى جمال الطبيعة يُلقى ، عندما يمضى ظهرها القوى المضىء ، ظلاً طويلاً ساكناً فى التراب ، حتى يُجنّه الليل ، ويأخذ حلمه

الغريب معه ـ وقطعاتُ الماء تنقش تحت قوسها الضعيف ظلالاً واهياً ـ والأهلة الذهبية التي تحيط برؤوس القديسين بالنوافذ ، تلقى ظلالاً شاحبة مرتعشة عندما تضيء النجوم ـ وأجمل شيء تحتضنه الأرض ، الظل له ، له لمحة من لمحات الموت المظلمة الآبدة تكتنفه دائماً حتى آخر النفثة الأخيرة الوانية ، فمن إذن يمكنه أن ينبيء عن جمال الخلق الإلهي الذي لا ظلَّ له به ؟ » . . . . (١)

ويضمّ الشعر الانجليزي نماذج فنية أخرى لشعراء محدثين ، نذكر منها للشاعر إدوار توماس قطعتيه « خارجاً في الظلام » و « البومة » ، وفي هذه الأخيرة يقول « إن البومة تتحدث إلى كل الذين ينامون تحت النجوم من عساكر ومساكين لا قدرة لهم على الابتهاج ! » ، وللشاعر د. هـ. لورنس قطعة لطيفة عن « مطر الخريف » ، وقصيدة طويلة عجيبة في أفكارها وتناولها عن « البعوضة » ! ونذكر من هذه القطعة الفقرتين التاليتين :

« متى تبدئين رحيلك
ياسيدتي ؟
ولِمَ تقفين على هذه الأرجل الطويلة ؟
ولماذا هذا الطولُ في ساقك ؟
أية رفعة !

* * *

---

(١) نماذج شعرية للشعراء الانجليز مجموعة في « التقدم الشعري » ص ٤١ ، ونذكر منها الفقرة الاولى :

Even the beauty of the rose doth cast,
When its bright, fervid noon is past,
A still and lenthening shadow in the dust,
Till darkness come
And take its strange dream home.

سمعتُ امرأة تسمياك « الانتصار المجنَّح »
فى البندقيـة العارية
أنت تديرين رأسك حول ذنبك وتبسمين ! »

* * *

وللشاعر توماس هاردى قطعة عن « الخلود » يرى فيهـا أن الانسان شعلة ضعيفة تفنى وسط الظلام ! ـ وله قطعتـه « فى أثناء الريح والمطر » يقول فيها بأسلوب خفيف إن الريح والمطـر يغنيان أعـز أغانيهـا ، والأوراق العليلة تـترنح ، والعشب الزاحف يتطهر ، والحديقـة فى ابتهـاج .

وللشاعر الموسيقى روبرت بردجز قصيدة عن « الحديقة فى سبتمبر » ليست مشرقة الديباجة ، يصف فيهـا الأنغـام الناعسة فى الخـريف ، وليست هذه القصيدة الطبيعية نموذجاً حسناً لشعره ، فله قطـع فنيـة رائعة مثل قصيدته « لذتى ولذتك » ، وهى مثال بديع للشعر الانجليزى الحديث . ويطول بنا المقـام إذا حاولنا أن نذكر إنتاج شعراء الانجليز الآخرين من أمثال هوبكنز ، ويتس Yeats ، وإليوت ، وأودن ، وولفرد أوين ، ووليان ياوز ، وروزنبرج ، وداى لويس ، وليون ، وغـيرهم ممن تناولوا الطبيعـة وتحـدثوا عن مرائيهـا الصغيرة ، ويمـكن للذين يريدون التبسط الرجـوع إلى مجمـوعات الشعر الانجليزى الحديث فى « تقديم الشعر » وسوف يقعون على قطع فنيه لطيفة ، والذين درسوا هذا الشعر الحديث يرون من سماته السهولة ، وإن اكتنفت معانيه الأسرار والغموض ، حتى قال بنيون : إن الغموض فى الشعر الحديث صار طرازاً جـديداً ، ويـكاد أغلب هؤلاء الشعراء لا يهتمون بالصياغة ، فالذى يقرأ هاردى أو أودين أو لورنس أو إليوت

أو غير هؤلاء ممن ذكرنا ، يجد أنهم ينطلقون فى تجاربهم الشعرية غير مقيدين بوزن ، ولا قافية ، ولا يعرفون تلك الأغلال والقيود التى قتل بها العربُ أفكارهم وحبسوها فى قلوبهم ، قبل أن تظهر على القرطاس .

الشعر الفرنسى الحديث

ويبدو لى أن الشعر الفرنسى فى العصر الحديث يمتاز على الشعر الانجليزى بالعذوبة والنقاوة والطلاوة ، وربما كانت التجربة الفنية فى الشعر الانجليزى أوضح وأظهر من الشعر الفرنسى ، وقد وقفنا بالقارىء فى الشعر الفرنسى عند شعراء القرن التاسع عشر الكبار وهم شاتوبريان وهيجو ولامارتين ، وهم من الشعراء الرومانيتك الذين احتفلوا احتفالاً عظيماً بالطبيعة ، ولم يقتصر هذا القرن على هؤلاء ، بل هناك شعراء رومانتيك آخرون ، وشعراء برناسيون ، وشعراء رمزيون ، وهؤلاء وإن اختلفوا فى المزاج الشعرى ، الا أنهم تناولوا الطبيعة كل على طريقته ومثاله . فمن شعراء الرومانتيك نذكر دى موسيه De Musset وهو الطفل الجبار للرومانتزم كما يقولون . وقد كان يحن حناناً عظيماً للصمت يجد فيه رياضة لآلامه ، وله ملحمة طويلة هى مناجاة شعرية بين آلهة الشعر والشاعر . وهى مزيج حبه بجمال أحداث الطبيعة ، وقد قسّم هذه المناجاة بين الليالى : فمناجاة فى مايو ، ومناجاة فى أغسطس ، ومناجاة فى أكتوبر ، والذين يريدون أن يتذوقوا جمال الشعر الفرنسى وعذوبته يجدون فى هذه الليالى ينبوعاً ثراً للمشاعر ، وقد ترجمت هذه الليالى الى العربية ترجمات مختلفة . ونذكر « من ليلة مايو » هذه الفقرة الموسيقية [1] :

---

(١) مجلة (أبولو) ـ ترجمة الشاعر اسماعيل سرى الدهشان .

« أيها الشاعر خذ قيثارتك ، إننى خالدة ، فها أنت ذا ترى الليلة حزينة وصامتة ، وكالطائر تناديه أسرته ، ولقد جئت أبكى معك من السموات العُلىَ - وتعالَ إلىّ فأن الألم يا صديقى يحزّ قلبك .... »

وفى « ليلة أغسطس » نذكر على لسان الشاعر هذه المقطوعة :

ولما سرت فى الروض الأنيقِ
مساءً والأزاهـرُ فى طريقى
بصرتُ بزهرةٍ صفـراءَ قامتْ
على النسرين تبسم فى خفـوقِ
وكمْ فى القبـالة كالشقيـقِ
ترنّحَ فوق ذا الغصنِ الرقيقِ
يـكاد يجىء بالطلع العجابِ
كـذا يحيـا الرجالُ على التصابى

وأما « ليلة أكتوبر » فهى ليلة مخيفة ، هى الليـلة التى عاد فيها إلى قيثارة الشعر يوقع أنغام ألمه ، ويذكر نكبته العاطفية ، وفى آخرها يخاطب إلهَة الشعر ويكشف عن حبه الذاهب وحبه للطبيعة الباقى ، يقول :

« أذن إلهَة شعرى الآنفاستمعى ، ثم اشهـدى بعد تبريحى على قسمى بالأعـين الزرق ممن بت أعشقها ، وبالسماء وبالأفلاك وبجمرة الشهب الذاكية المتوهجة التى تشعّ كالدرة العصماء فى الأفق ، وبالطبيعة فى أقصى جلالتها ، وبالنسيم ، وبالضياء النقى الهادىء ، وبالعشب ، وبالخضرة .... يقسم بأولئك جميعاً أنه طرد طيف الحبيبـة الخائنـة ومضى إلى حياة جديدة .. »

وبينما نجد دى موسيه وشاتوبريان وهيجو يجدون فى الطبيعة ملجأً

وملاذاً ، إذ بنا نجد الشاعر الفرنسى الشهير ألفرد دى فينى Vigny لا يتجاوب مع الطبيعة ، وينعتها بالبرود ويحتقرها ! فاسمع اليه يقول لها :

« عيشى أيتها الطبيعة الباردة وعيشى بلا انقطاع تحت أقدامنا ، وفوق جباهنا ، وما دام هذا قانونك ، عيشى واحتقرى الآخرين ، إذا كنت إلهة ! ثم يخاطبها بقوله : « أحب جلال الآلام البشرية ، أما أنت فلن تنالى منى صرخة حبّ ! »

وتناول الطبيعة الشعراء البرناسيون وعلى رأسهم تيوفيل جوتيه ، وبانفيل . وهذا الأخير من عُبّاد القافية ، والشاعر الأول يمثل الفن للفن ، وله قطع فى الطبيعة ، وله أغنية من أغانى الخريف يقول فيها : إن كثيراً من الأوراق الجافة منتثرة على العشب الأصفر ، والنسيم فى المساء والصباح يهب فى عذوبة ، ويلاه ! لقد انتهت الأيام الجميلة ... »

ونضم الى جماعة البرناسيين الشاعر فيكتور دى لاپراد Do la Prade ، وله قصائد فى الطبيعة نذكر منها قصيدة « القمم العالية » التى يقول فيها « سأشرب الماء البكر من ينابيع الأنهار العظيمة ، وسأضع أقدامى على زرقة الثلاجة ، وسأغمر جسدى فى موجات النسيم المتجددة ... ! » ولكن قصيدته « الشجرة » [1] هى نموذج للتجاوب الروحى مع الطبيعة ، وفى هذه القصيدة يخاطب شجرة البلوط فيقول :

« سلام عليك أنت التى عبدك الانسان منذ ولادته ، وعند ما يراك ساكنة يشك فى حياتك ، ولا يعترف بك من سكان هذه الأرض المقدسين ... لأشعر أن روحاً تسرى تحت لحائك ، وأنك لا تجهلين بضاعتنا ،

(1) Poeme de L'arbre.

ولا حاجتنا للوقود ، ولكنك تحلمين فى عمق ، وفى سجو مثل إلّه ... وثباتك منشؤه قوتك ! »

ونحظى فى شعر الرمزيين وعلى رأسهم فرلين Verlaine وبودلير بشعر عجيب فى الطبيعة ، يتنفس موسيقى المعانى ، ولا يعرف موسيقى الروماتيك ولا البرناسيين اللفظية . ومن أحسن ما قرأنا لفرلين فى الطبيعة قطعة « أغنية الخريف » [1] وهى قطعة خارجة من قلبه المكتئب اليائس ، ثائرة على الوزن والقافية ، ولها سحر حقيقى ، وها هى ذى بأكملها حسب ترتيبها الأصلى :

التنهداتُ الطويلةُ
للكمنجاتِ
وللخريفِ
تجرح قلبى
بطولها المُملّ ...
كلها خانقةٌ
ومورثةُ الشحوبِ
وعندما تدقّ الساعةُ
أذكرُ
الأيامَ الغابرةَ
وأبكى !

* * *

وأذهبُ

---

(1) Chanson d'automne

مع الريح الردىء
الذى يحملنى
هنا وهناك
مثل
ورقة ميتة !

وكذلك حفل بودلير بالطبيعة ، وقد أحدث فى أدبها هزة جديدة هو وفرلين ، ويمتاز بودلير بالوضوح ، وبالمعانى الظريفة . ومن قطعه الطبيعية نذكر « انسجام المساء » و « الرجل والبحر » ، و « حزن القمر » و « الحقل » و « الشمس » . ومن أشهر قطعه الموسيقية قطعته « دعوة لسياحة » (1) وقد أتى فيها بقافية أصيلة ، ونذكر الفقرة الأولى منها :

ابنى وابنتى
فكرا فى العزوبة
فى أن تعيشا سوياً
تتحابان فى الفراغ
وتتحابان وتموتان
فى البلاد التى تجمعكما !

وقد كان اهتمام بودلير موجّهاً فى الغالب إلى الحياة الواقعية وقد

Mon enfant, ma soeur
Songe à la douceur
D'aller Là - bas vivre ensemble
Aimer à loi sir,
Aimer et mourir
Au Pays qui te ressemble !

تناول الجانب المرهوب فيها ، حتى أن خمسَ قصائد فى ديوانه (أزهار الشر) كانت موضع تحقيق قضائى انتهى بالحكم عليه أمام المحكمة بغرامة قدرها ثلاثمائة فرنك . وكان من بين هذه القصائد قصيدته الطويلة « النساء الملعونات » Femmes Damnées ـ وهى من أجمل القصائد الفرنسية وقد أضاءت بالتشابيه الطبيعية ، كما زخرت بالأفكار الجنسية الجريئة ، وموضوعها حوار بين فتاتين (هيبوليت ودلفين) ، جاء فى بعضه من قول الأولى للثانية وهى تكاد تجنّ ، بحبها :

« أديرى نحوى عينيك المليئتين بالزرقة والنجوم ! وسأنام بعدئذ فى حلم لا ينتهى ! »

ثم تجيبها دلفين فى موضع بعيد :

« إن الذى يريد أن يوثق ـ برباط صوفى ـ الظلَّ مع الحرارة ، والليلَ مع النهار ، لن يدفىء جسمه المشلول فى هذه الشمس الحمراء التى نسميها الحب ! »

وهذه القصيدة من عيون الشعر الجنسى فى كل الأزمان ، وإذا كان بودلير قد حُكم عليه من أجلها فإن هذا الحكم قد نقضته محكمة الأدب الرفيع ، فعطف عليه هيجو فى منفاه ، وانتصر له الشاعر الكبيرُ جوتييه ، وأعزّ جانبه الناقدُ المتحررُ سانت بيف .

ولا يهمنا إذا كان بودلير شخصاً هوائياً ، أو غريباً فى حبه ، أو إذا كان ممن يتعاطى الأفيون والحشيش ، وإنما الذى يهمنا أن نذكره أنه كان رجلاً يكره الروح العامية ، وأن ديوانه (أزهار الشر) ينم عن ذهن مشغوف بالطرافة والغرابة والأصالة . وإن الديوان ليس ذاتىَّ النزعة بل موضوعىَّ النزعة ، يعبر عن آثام المجتمع ، وخلجات

النفوس الحقيقية وقد تنبأ شعراً عميقاً ، لم يعطر جيله فقط ، بل كان بذرة من بذور التجديد فى القرن العشرين ، ونقطف منه قطعته المستقلة عن الطبيعة وهى « الضباب والأمطار » التى يقول فى الفقرة الأولى منها :

« يا أواخر الخريف والشتاء والربيع .. أيتها الفصول النائمة ! أحبك وأضرع أن تلفى قلبي وذهبي فى رداء متبخر ، وقبر مجهول ... »

وفى الفقرة الثانية يقول :

« فى هذا الوادى العظيم حيث الريح الجنوبية الباردة تلعب ، أو فى الليالى الطويلة حيث الناطور يدور ، أشعر كأن روحى فى أوقات الفتور تتجدد ، وتنبهها أجنحتها الغرابية ! »

وفى الفقرة الثالثة يقول فى رمزية :

« ولا شىء يبدو عذباً للقلب الملىء بالأشياء المظلمة والذى ينزل عليه الضباب الثقيل .

أيتها الفصول الناصلة ، يا ملكات أجوائنا ! »

* * *

ولقد بذر شعراءُ القرن التاسع عشر الرمزيين بذرة التجديد للقرن العشرين ، وكان ممن شهد بداية القرن العشرين الشاعر فرانسوا كوبيه الذى توفى عام ١٩٠٨ وهو من الشعراء الحالمين ، ومن شعراء الطبيعة الذين قاموا بجولات حول باريس ، وقنصوا لوحات بديعة من الحقول . ولكوبيه قطعة شعرية تبين كيف كان يحلم فى الطبيعة عنوانها « فى الضاحية » En Banlieu ، يقول فيها :

« مع حلمى السعيد ، أحب السفر والمشى فى التراب ، ورؤية الشمس غاربة بين الضباب الذهبى الكثيف ، ومن خلف الأشجار العجوز أتأمل الألوان البديعة ، ولوحات السحب التى تستحم فى الغروب المحمر ... »

ثم يقول : « وبعيداً ... تنفث باريس على أقدامى تنهدة خالدة ! »

وتتجلى محبة كوبيه للطبيعة وحساسيته الدقيقة فى قصيدته « موت العاصفير » Mort des oiseaux ـ التى يقول فيها :

« فى المساء ، فى ركن اللهب ، فكرت مرات فى موت عصفور كان فى الغابة فى أثناء أيام الشتاء التعسة المملة ، والعشاش المهجورة تتأرجح فى الهواء تحت السماء المعتمة » .

« أوه ! كم ترجو العصافير أن ينقضى الشتاء ، وبالرغم من مجىء وقت البنفسج ، فإنا لا نجد آثاراً لأجسامها الدقيقة فى عشب أبريل الذى نخطو عليه ، فهل العصافير تختفى لتموت ؟ »

ومن الأدباء الفرنسيين المشهورين فى القرن العشرين نذكر الأديبين الفرنسيين الجهيرين بيير لوتى وبارس Barès ، ومن الشعراء پول فورت ومدام دى نواى وفرنسيس جام ، وميزة بيير لوتى فى وصفه للبحر وألوانه وتقلباته وللقمر وأوضاعه ، وقد ذكر أحدُ الكتاب الفرنسيين أن لوتى كان مريضاً بالنورستانيا ، وأن الغاية من رحلاته التماس الشفاء ، ولكنا مع ذلك نجد فى بعض قطعه الأدبية ما يدل على محبة حقيقية للطبيعة ، وبساطة الأذهان الفطرية ، فقد كان يقول إن رجال الأمس

كانوا أسعد حالاً من رجال اليوم ، وإن أغاريد العصافير منذ ألف سنة كانت أبهج منها فى عهد الحضارة الراهنة ، كما كانت الشمس أشد لمعاناً !

أما الأديب الفرنسى بارس فهو من أعلام أدباء فرنسا الذين استوحوا الطبيعة وقد توفى عام ١٩٢٤ ، وله خطرات رائعة فى وصف جمال اللورين .

ولكن الشعراء قد أبدعوا أيما إبداع فى تصوير الطبيعة ، فالشاعر پول فورت هو - كما يقولون - عصفور فرنسا المغرد ومن الشعراء المتفانين فى حب الطبيعة ، وقد ضرب لأزهار فرنسا وأنهارها الزرقاء على معزفٍ رقيقٍ حباه له السعدى الشيرازى ، وله مجموعة أغانٍ تضم الكثيرَ من شعره الوجدانى والطبيعى ، وليس تحت يدنا الآن هذه المجموعة لنقطف منها نموذجاً ، فلعل القارىء يرجع إلى النبع الأصيل . وأما الشاعرة - مدام دى نواى - فقد خلقت جواً شعرياً عاطراً ، ولم تتبع أىَّ مدرسة شعرية ، بل سارت على فطرتها الشعرية ، وغنَّت من قلبها إلى القلوب . ومن مقطوعاتها المشهورة « ظل الأيام » و « الراعى » و « مدح الوردة » . وقد جاء فى هذه القطعة :

« أى هدوء نجد فى الحديقة ، هنالك يسكن الوقت ، وهنالك العصافير تعيش قانعة ، غير آبهة ، ومحبة للوردة » .

وقد وُسِمَ كثيرٌ من شعرها ونثرها بالاستيعاب والتفصيل . اسمع إليها تقول :

« فى الحديقة المسكرة بالزهر والخضر العاطرة ، عندما رطَّب الفجرُ العشبَ الشذىَّ ، والحشرات المتلفة انتشرت على الطماطم ، . . . . . .

سآتى الى الزرقة والضباب الكثيف المنتشر ثملة من الوقت الحى ، والنهار الوليد ، وتنبه قلبى مثل الديك المغنى ، فى ظمأ نحو الشمس الطالعة » .

وهذه الشاعرة هى من أغزر الشواعر وأسخاهن فى أدب الطبيعة ، وغرامها بالحدائق وفتنتها بالأزهار مشهورة ، ولذا سميت بحق « عروس الحدائق الشاعرة ! » ، والذين قرأوا ترجمة ديوان (حديقة الأزهار) للسعدى الشيرازى يحمدون لهذه الشاعرة مقدمة فياضة تفوح بالشاعرية ، وتفيض بعطور أزهار الشعر .

وأما الشاعر فرنسيس جام فهو شاعر بسيط سليم الطوية ، ويحتل مكاناً لا نظير له فى الشعر الحديث ، وقد نفث شعره العطر الفرنسى ، وله سحر الخيام وعذوبته ، وقد وصف فى قصائده جمال الزهر وطهارته . وقد نعته أحد الكتاب الناقدين بالطائر الجميل الذى يغنى فى الصيف على شجرة مونقة ! وذلك بالنظر لاختلافه الى الطبيعة ومحبته لأحداثها ، ونذكر نموذجين من شعره أحدهما يمثل واقعيته والآخر يمثل شطحاته الشعرية ، فقصيدته « مع مظلتك » هى حكاية راعٍ أخذ غنمه إلى جبال البرناس ، ووصف تفصيلى له ، قال فيها :

« بمظلتك ، ونعاجك القذرة ، وملابسك التى تفوح منها رائحة الجبن أنت تذهب الى سبيلك ، معتمداً على عصاك البلوطية ، وتتبع الكلب ذا الشعر الخشن والحمار الذى يحمل الأحمال الغليظة على ظهره البارز ، وأنت تمر على حدادى القرية ، وتغنم شذى زهر الجبل ، وتطعم نعاجك العشب وورق الشجيرات ، وبينما الأبخرة تخفى القمم ، إذ بك تقود الأغنام وإذ بالنسور تحلق ، فأنت ترعى فى هدوء وروح

الله مرسومة على هذا الوجود الواسع » .

والنموذج الثانى من نماذج جام هو قصيدته (القرية القديمة) Le Vionx Village ، وقد أهداها إلى أندريه جيد ، وفيها يقول :

« كانت القرية القديمة مليئة بالورود ، وكنتُ أسير فى طرقها القديمة فى شدة الحر ، وقسوة البرد ، وحيث كانت أوراق الورود نائمة — وبعد وقتٍ سرتُ إلى جانب حائط مهدم ، حيث كانت هنالك حديقةٌ زاخرةٌ بالاشجار العظيمة ، فنشقتُ شذى الماضى من تلكم الأشجار العظيمة والورود البيضاء . ولا يسكن القرية أحدٌ ، ولكنا نجد فى هذا المتنزه العظيم آثارَ الغابة السوداء الجافة تنير فى الشمس — آه ! لقد كان أطفال الماضى يلعبون — بلا شكٍّ — فى هذا المتنزهِ المُظَلَّلِ ، وشهدوا فيه أنواع النبات المجلوبة من أصقاع بعيدة — وكان الاباء يبدون لأولادهم كنهَ تلكم النباتات : فهذه لا جمال فيها ، وهذه تحوى سُمّاً ، وتلك من بلاد الهند ، وتيك من شجرات الحسن » .

وهناك شعراء كثيرون عاشوا قبل الحرب العالمية وبعدها واختلفت أعمالهم الفنية باختلاف أمزجتهم ، وبضغط الحوادث ، ولكن مما لاشك فيه أن الشعر الفرنسى احتفظ قبل الحرب بعذوبته وسلاسته وجماله وبساطته وموسيقاه ، أى أنه بقى على تقليده فى القرن التاسع عشر ، أما ما بعد الحرب فقد تحرر الكثيرون من الشعراء من الرمزية ، وتركوا كلَّ مذهب ، وركنوا إلى ميولهم وأهوائهم الخاصة ، وإن كان بعضُهم رجع إلى الرومانتزم مثل جان ريشبان .

وصفوةُ القول إن أدب القرن العشرين تزوَّد بالآراء العلمية ، وذلك لما نشر الفلاسفه الفرنسيون من تعاليم من أمثال الرياضى العبقرى

هنرى بوانكاريه وبرجسون الذى أوجد اليقظة الروحية بكتبه ، وفى طليعتها كتاب (التطور الخلاّق) L'evolution Creatrice كما تأثرت الخاطرات الشعرية بتعاليم هاميلان الذى أسس ألوهية جديدة مبنية على الفلسفة الفكرية . وقد كان فى طليعة الأدباء الذين أحيوا التفكير الأدبى الشاعر هنرى دى رينيه Regnier ـ وقد لجأ فى شعره إلى ذوقة ومزاجه ، وله فى الطبيعة قصيدة « الصائدة » ، وكذا تحلل من الرمزية الشاعر ألان فورنييه Fournier وفرنسيس جام ، وهذا الأخير هو شاعر الطبيعة والألوهة ، وتحدث عن الريف حديث البساطة والطرافة والسحر كما أسلفنا ، وللشاعر الشهير بول فاليرى Valery قصائد عن الطبيعة ضمتها مجموعته (الزورق الصغير) ، وفاليرى فنّان ورياضى وفيلسوف يميل الى البساطة والصفاء . وهؤلاء من أدباء قبل الحرب ، وقد كانوا لا يحيدون فى أدبهم عن المبادىء الخلقية الا القليل النادر منهم . أما أدباء بعد الحرب فقد شعروا أنهم جاءوا الى دنيا جديدة ، ولوّنوا آراءهم بلون أمزجتهم الخاصة ، وبدت فى شعرهم أثارة من عدم الاهتمام بوحدة القصيدة . وليس فى وسع هذا البحث دراسة هؤلاء الشعراء كما يجب ، ولهذا نكتفى بذكر بعضهم ، وبيان نزعتهم الأدبية : فالشاعر فرانسيس كاركو مصور بارع للمجتمع ، وقد اختصّ شعره بتصوير الطبقات الدنيا ، وتحدث عن اللصوص ، ولم ينس الطبيعة ، وله قطعة عن « يونيو » قال فيها :

« إن صمت الريف يغنى نغماً يتفق مع قيثارة متيّمة ! فكأنى أسمع النغم يتنفس ، مثلما تتنهد الآلة ، والليل يتربص هادئاً ثملاً ، وآلامك النائمة ياقلبي تتألم مع الصوت المغنى ، وهذا الحزن الذى يزداد مثل الظل المتحرك ، إنه لك ، إنه صوتك ! »

وللشاعر جبرائيل بيوسى Biossy قصائد كثيرة عن الطبيعة ، ومن ذلك مقطوعة « العطر » التى يقول فيها :

مِن أىِّ الحدائق العَبِقة تأتى هذه النغمات القاسية التى تحمل الربيع وزناً ، إنها من المقبرة التى تحت أشجارها الدائمة الخضرة ترقد الوردة التى جعلتها هامدة بين الورود » .

وله قطعة أخرى « أمسية اكتوبر » وقطعة ثالثة ، عن « البلبل » ، ورابعة عن « الليل » يقول فيها :

« نهض الليلُ مع الصمت ، حافلاً بآلاف الأصوات التعسة ، نهض الليل مثل تنهدة نحو النجوم ، ولماذا لا تزفر النجوم نحونا ؟ وكل يبقى كما كان بالأمس ، الحب أو الموت هما الذان يبعثان العزلة غير المحدودة ! »

وهناك شعراء آخرون توزّعوا بين الانسان والطبيعة ، نذكر منهم پول كلوديل ، وهو جاف الصياغة وإن كان تصويره قوياً واضحاً ، وجان جيرارو وهو أديب وشاعر يميل الى التحليل النفسى ، وله خيال ينبض بهوائيته ، والشاعر أندريه ديلا كور Dela Cour وله طائفة من القصائد الطبيعية ، والشاعر فرنسو موريلك ، ومارسل أوموى Ormoy وله هذه المقطوعات « الضوء الهادىء » ، « الضجة » ، « النيران الأولى للفجر » ، « عذوبة حلم » . وتختم هذه الطاقة الشعرية بشاعر الطبيعة الرائع جان ماريرج Marirg وله مقطوعات شائقة يناجى الطبيعة فيها ، وفى المقطوعة الثالثة يقول :

« أيتها الطبيعة ! غنّى لى بصوتك المزدوج
فان قلبى وثاقُ يدكِ غير المرئية
ودعى الريح تتنهد فوق أغصانك المتعانقة

ومزاهـرك تتنفس فى غاباتك الساجيـة
ودعى الينبوعَ يبكى ، والمجارى ترتعد
وقلبى سوف تنبثق منه الشعاعات مثل المنارة ! »

ويتضح من هذه النماذج الوجيزة أن الشعر الفرنسى يحتفظ بعذوبته وبساطتـه وسلاسة ، بعكس الشعر الانجليزى الذى يجنـح إلى غمـوض الفكرة ، ولا يلقى اهتماماً إلى الصياغة . والظاهرة الواضحـة فى الشعراء الفرنسيين والانجليز على السواء فى الوقت الحاضر هى أنهم لا يتبعـون مدرسةً خاصةً ، إذ كل شاعر منهم يعبر عن خلجاته الخاصة على مزهره الشعرى ، كما أن كثيراً منهم تحرر من القيود الوزنية ، وهامت أفكارهم فى جو الطلاقة والتحرر الذهنى .

الأدب المصرى الحديث

هـذه لمحاتٌ سريعةٌ موجزةٌ عن الأدب التصويرى عند الانجليز والفرنسيين خاصةً ، توخينا فيها كلَّ الايجاز ، ولم نجترىء فيها على نقد أعمالهم بالنظر لدراستنا المحدودة ، وقد اكتفينا بالعرض السريع بقصـد الإفادة والإثارة . وقد كان هذا الأدب للتفكير والتوجيه الموضوعى لدى الأدباء المصريين المحدثين ، وليس من شك فى أن الأدب المصرى الحديث قد لُقِّحَ بالأدب العربى والأدب الغربى ، وقد ضمَّ سجلُّ الأدب المصرى الحديث أعمالاً فنيةً تُعَدُّ مفخرةً له ، ولا نكون مغالين إذا قلنا إن لبعض شعرائنا المجددين قصائدَ تبز القصائد الغربية ، ويعتبر البارودى الرائد الأول للشعر المصرى الحديث ، وقد تتلمذ عليـه المدرسيون وفى طليعتهم الشاعر الكبير حافظ ابراهيم ، وقد أتحف البارودى شعرَ الطبيعة

بنماذج تصويرية ووصفية جميلة ، نذكر منها قصائده فى الحمام والطير ووصفه لجمال الجزيرة ، وتصويره لحرب كريد التى افتتحها بقوله :

أخذَ الكرى بمعاقدِ الأجفانِ وهفا السُّرَى بأعنةِ الفرسانِ
والليلُ منشورُ الذوائبِ ضاربٌ فوقَ المتالع والربى بجرانِ

هذه القصيدة الرائعة هى تحفة فنية بالنظر لقوتها البيانية وتصويراتها المكانية والنفسانية ، وهى — كما يقول الدكتور أبوشادى فى مقال له [1] — تكفى وحدها لخلود البارودى . ولكننا إذا رجعنا إلى باقى شعره التصويرى والوصفى نجد أكثر من وحى القدامى وروحانيتهم ، والقليلُ منه أصيلٌ ومن وحى العقل الباطن . اسمع اليه يقول جامعاً بين الكأس والطبيعة كما كان يفعل ابنُ المعتز مثلاً :

أدِرْ الكأسَ يا نديمُ وهاتِ واسقنيها على جبينِ الغداةِ
شاق سمعى الغناءُ فى رونق الفجر وسجعُ الطيورِ فى العذباتِ
أىُّ شىء أشهى إلى النفس من كأ سٍ مُدارٍ على بساطِ نباتِ

ولا نجد فيما نُشر من شعر البارودى قطعاً مستقلة عن الطبيعة ، ولكن كل ما كان يرمى اليه هو تلوين خواطره الوجدانية والفلسفية وتجميلها باللون الطبيعى . وقد جرى على غراره فى هذا بعضُ شعراء العصر الحديث وبخاصة حافظ وشوقى وصبرى وفكرى ومحرم والبكرى ، فتصوير هؤلاء لم يكن فى الغالب إلا وصفاً حسياً للمرائى ، دون الحالات النفسية ، ودون إبراز تجارب شعرية فنية فى هذه الناحية الطبيعية .

وقد جادت شاعريةُ شوقى فى النواحى الأخرى بقطع رائعة باقية

---

(١) « التصوير فى شعر البارودى » للدكتور أبو شادى — مجلة (الامام) ، العدد الخاص بذكرى البارودى ، مارس سنة ١٩٣٦

ومن منا ينكر تصويره الخلاب ودقته المشهورة فى رواياته التمثيلية وبخاصة رواية (كليوباطرة) . وكذلك كان حافظ جيد التصوير ولكنه لم يكن فى قوة شوقى ولا فى قدرته على التخيل الأخاذ . وللشاعرين قطع مشهورة فى التصوير ، نذكر منها للأول قصائده « البحر الأبيض » و « غاب بولونيا » و « الربيع » ، وللثانى قصائده « الشمس المعبودة » و « عاصفة بحرية » و « وصف لبنان » .

ولا بدّ لى من وقفات مع الشعر العصرى حتى يتذوّقه شُداةُ الأدب بعد أن فُتنوا طويلاً بالأدب القديم حتى انعكست الآيةُ فلم يدروا أن الشعر الحديث الأصيل يمثل فى الواقع أرقى مراحل الشعر العربى ، وأعنى ما سلم من آفة التقليد بأنواعه ، وأنه أجدرُ بالدرس والاستيعاب فى حلقات الأدب وفى المعاهد الدراسية . يقول حافظ فى « الشمس المعبودة » :

لاحَ منها حاجبٌ للناظرينْ فنسوْا بالليلِ وضّاحَ الجبينْ
ومحتْ آيتَها آيتُهُ وتبدّتْ فتنةً للعالمينْ
نظرَ (ابراهامُ) فيها نظرةً فأرى الشكَّ وما ضلَّ اليقينْ
قال : ذا ربىّ ! فلما أفلتْ قال : إنى لا أحبُّ الآفلينْ!
ودعا القومَ الى خالقها وأتى القومَ بسلطانٍ مُبينْ
ربٌّ ، إنّ الناسَ ضلوا وغوَوْا ورأوْا فى الشمسِ رأىَ الخاسرينْ
خشعتْ أبصارُهمْ لمّا بدتْ والى الأذقانِ خرّوا ساجدينْ
نظروا آيتَها مُبْصِرةً فعصَوْا فيها كلامَ المُرْسَلينْ
نظروا بدرَ الدُّجى مِرآتَها تتجلى فيه حيناً بعدَ حينْ
ثم قالوا : كيف لا نَعْبدُها؟ هل لها فيما ترىَ العينُ قرينْ؟

هى امُّ الأرضِ فى نسبتِها هى أمُّ الكونِ والكونُ جنينْ
هى أمُّ النَّارِ والنُّورِ معاً هى أمُّ الرِّيحِ والماءِ المَعينْ
هى طلعُ الرَّوْضِ نَوْراً وجَنَى هى نشرُ الوردِ ، طِيبُ الياسمينْ
هى موْتٌ وحياةٌ للورَى وضلالٌ وهدىً للغابرينْ
صدَّقوا ، لكنهم ما عَلموُا إنَّها خلقٌ سيَبلى بالسِّنينْ
آلهٌ لم يُنزِّه ذاتَه عن كسوفٍ ؟ بئسَ زعمُ الجاهلينْ !
إنّما الشمسُ وما فى آيها مِنْ مَعانٍ لمعتْ للعارفينْ
حكمةٌ بالغةٌ قد مثَّلتْ قُدرةَ اللهِ لقومٍ عاقلينْ

وفى هذه القصيدة يمزج حافظ الوصف الطبيعى بالتفكيرين الدينى والعلمى معاً ، فهى طرازٌ غريبٌ من الشعر ، ولكنه يتمشَّى مع الثقافة التى نهل منها حافظ فى ذلك الوقت .

أما عن قصيدته فى وصف العاصف أثناء رحلته الى ايطاليا فطريفة ، وفيها يقول :

عاصفٌ يرتمى وبحرٌ يُغيرُ أنا باللهِ منهما مستجيرُ !
وكأنَّ الأمواجَ وهى توالى محنقاتٍ أشجانُ نفسٍ تثورُ
أزبدتْ ثم جرجرتْ ثم ثارتْ ثم فارتْ كما تفورُ القدورُ
ثم أوفَتْ مثلَ الجبالِ على الفُلْـكِ ، وللفُلْكِ عزمةٌ لا تَخورُ
تَترامَى بجؤجؤٍ لا يُبالى أمياهٌ تحوطُهُ أم صُخورُ
أزعجَ البحرُ جانبيْها من الشدِّ فجنبٌ يعلو وجنبٌ يَغورُ
وهو آناً ينحطُّ مِن علوٍ كالسَّيْلِ ، وآناً يحوطُها منه سُورُ
وهى تزوِرّ كالجوادِ اذا ما ساقه للطِّعانِ ندبٌ جسورُ
وعليها نفوسُنا خائراتٌ جازعاتٌ كادت شعاعاً تَطيرُ

فى ثنايا الأمواجِ والزَّبدِ المنـ ـدوفِ لاحتْ أكفانُنا والقبورُ !

وهو فى هذه الأبيات يصوّر الى حدٍّ ما حالةَ الركب النفسية كما يصوّر العاصف ذاته أصدق تصويرٍ وأبلغه فى وجازةٍ وإبداع .

وأمّا وصفُه للطبيعة فى لبنان فمن رائع الشعر الكلاسيكى الذى جادت به براعةُ أىّ شاعرٍ محدثٍ . استمع اليه يقول :

سكنتمو جنةً فيحاءَ ليس بها عيبٌ سوى أنها فى العالم الفانى
إذا تأمّلتَ فى صنعِ الإلهِ بها لم تَلْقَ فى وشيهِ صنعاً لانسانِ
فى سهلها وأعاليها وسلسلها بُرءُ العليلِ وسَلوى العاشق العانى
وفى تَضوُّعِ أنفاسِ الرّياضِ بها رُوحٌ لكلّ حزينِ القلبِ أسوانِ
إنّى تخيَّرتُ من (لبنان) منزلةً فى كلّ منزلةٍ روضٌ وعَينانِ
ياليتنى كنتُ من دنياىَ فى دعةٍ قلبى جميعٌ وأمرى طوعُ وجدانى
أقضى المصيفَ (ببلبنانٍ) على شرَفٍ ولا أحولُ عن المَشْتَى (بحلوانِ)
يا وقفةً فى (جبال الأرزِ) أنشدُها بين الصنوبرِ والشربينِ والبانِ
تستهبط الوحىَ نفسى من سماوتها وينثنى مَلَكاً فى الشعرِ شيطانى
علّى أُجاودُكم فى القولِ مقتدياً بشاعرِ (الأرز) فى صُنْعٍ واتقانِ
لابدْعَ إن أخصبتْ فيها قرائحُكمْ فأعجزتْ وأعادتْ عهدَ (حسّانِ)
طيبُ الهواءِ وطيبُ الروضِ قد صقَلا لوحَ الخيالِ فأغراكم وأغرانى
مَنْ رامَ أن يشهدَ الفردوسَ ماثلةً فليَغْشَ أحياءَكم فى شهرِ (نيسانِ) !

ومع أن على هذه الأبيات مسحة من السذاجة والمحاكاة ، فان لها طلاوة البيان الذى صقلته الطبيعةُ نفسها بيدها .

ويقول شوقى فى « الربيع » :

(آذارُ) أقبلَ ، قُمْ بنا ياصاحِ حىَّ (الربيعَ) حديقةَ الأرواحِ

واجمعْ نداماى الظّرْفِ تحت لوائهِ والشرْ بساحته بساطَ الراحِ
صفوٌ أتيحَ فخذْ لنفسكَ قسطها فالصفوُ ليس على المدى بمُتاحِ
واجلسْ بضاحكِ الرياضِ مصفّقاً لتجاوبِ الأوتارِ والأقداحِ

الى أن يقول :

ملكُ النّباتِ ، فكلُّ أرضِ دارُه تلقاه بالأعراسِ والأفراحِ
منشورةٌ أعلامُه من أحمرٍ قانٍ وأبيضَ فى الرُّبى لمّاحِ
لبستْ لمقدمه الخمائلُ وشيها ومرَحْنَ فى كنفٍ له وجَناحِ
يَغشى المنازلَ من لواحظ نرجسٍ آناً ، وآناً من ثُغورِ أقاحِ
ورؤوسِ منثورٍ خفضْنَ لعزّه تيجانَهنّ عواطرَ الأرواحِ
الوردُ فى سُرُرِ الغصونِ مفتّحٌ متقابلٌ يُثنى على الفتّاحِ
ضاحى المواكبِ فى الرياضِ مميّزٌ دونَ الزّهورِ بشوكةٍ وسلاحِ
مرَّ النسيمُ بصفحتيهِ مقبّلاً مَرَّ الشّفاهِ على خدودِ مِلاحِ
هتكَ الرّدَى مِن حُسْنِه وبهائهِ بالّليلِ ما نَسجتْ يدُ الإصباحِ
يُنبيكَ مَصرَعُهُ وكلُّ زائلٌ أنّ الحياة كغُدْوَةٍ ورَواحِ

وهذه الشوقية الممتازة بطول النفس والتفنّن فى وصف أزهار الربيع التى كان يُفتن بها شوقى تمثل روحَه المرحة التى طالما شعفت بالرياض ومجالس السمر التى شهدتها كرمتُه فى ضاحية المطرية ثم فى الجيزة . ومن فرائد أوصافه قوله منها فى النخل :

والنخلُ ممشوقُ القدودِ معصّبٌ متزيّنٌ بمناطقٍ ووشاحِ
كبناتِ فرعونٍ شهدنَ مَواكباً تحتَ المراوحِ فى نهارٍ ضاحِ

وقد أهدى هذه القصيدة الى هول كين الكاتب الروائى الشهير فى وقته ، فختمها باشارات تاريخية ملائمة تتفق والمغزى السياسى منها ، كما

تتفق وثقافة شوقى التاريخية التى طالما تجلتْ أبهى التجلى من عيون قصائده ، وأخصها بالذكر قصيدته فى هيكل « أنس الوجود » .

وأينما قلّبنا دواوين هذين الشاعرين ، أو دواوين مدرسة الشعر الأولى من مثل توفيق البكرى أو عبد الله فكرى وجدنا روحَ القدامى تنبض فى قصائد هؤلاء الشعراء ، وشعرهم يحاكى شعر البحترى والمتنبى وابن المعتز وغيرهم .

ومن شعراء الطبيعة فى ذلك الرعيل الأول مصطفى نجيب ، وقد اشتهر وصفه للقمر ولكن شعره تبدّد مع آثاره بعد وفاته فلم ينشر له ديوان . وهو من طراز اسماعيل صبرى فى تأثره بالثقافة الفرنسية كما تأثر بها خليل مطران فى صباه .

ومن شعره فى « مناجاة القمر » هذه المقطوعات اللطيفة (مجلة « أبوللو » ، م ٣ ، ص ٦١٩) التى ترجع الى نحو خمسين سنة خلتْ :

يا لوعةً لا تكادُ تُطْفَى أُضحى بها دائماً وأُمْسِى
ومحنةً لا تكادُ تَخْفَى فى حالتىْ وحشتى وأُنْسِى
ومَأمناً نلتُ منه خَيْفَا كأنّ نفسى عذابُ نفسِى
أسعدَنى وهو لى شقائى أحرقَنى وهو لى خليلْ
كعقابِ قوسينِ فى التّرائى وما الى قُرْبهِ سَبيلْ !

* * *

ناشدتُها قبلَ يومِ بَيْنى فى آخرِ العهدِ بالتّدانْ
بأن تنى فى الغرامِ دَيْنى وتنظر البدرَ حيث كانْ

لتلتقى عينُها وعينى عليه وقتاً من الزمانْ
فانْ حبا العهدَ بالوفاءِ وحقّقَ الظنّ للخليلْ
كان اتصالاً من السماءِ إذْ ليس فى الأرضِ مِن وُصولْ !

* * *

آهٍ على فائتِ الزمانِ والقلبُ بالقُربِ فى سُرورْ
ونحن فى الأمنِ والأمانى والدهرُ فى كيدنا يدورْ
إن غابَ عنى وعن عيانى فانّ مَثواهُ فى الصدورْ
ما دارت العينُ فى الفضاءِ إلا تَرائيهِ فى المُثولْ
أشهدهُ دون كلّ رأى ما كلُّ مَن قد رأى يميلْ (١)

وهذا الشعر يمثل رومانتيكية مبكرة ، ولكن مصطفى نجيب لم يكن من شعراء الطبيعة الخالصين .

أمّا البكرى فاسمع اليه يصف مصر فى روح قديمة :

والنيلُ فى لباتها عقدٌ يلوح مجوهرُ
والجو صحو مشرق وكأنما هو ممطرُ
والجيزة الخضراء يسبق رندها والعبهرُ
وترى الغصون على الأرا ئك تلتوى فتشجرُ
وجداول كسبائك بسنا الأصيل تعصفرُ

ولا ننسى أن لمحرم قليلاً من شعر الطبيعة الريفى ، ولكنه صرفَ مواهبه الى الشعر السياسى والاجتماعى وخاصة الى خدمة العروبة ، فضلاً عن الحركة الوطنية المصرية ، واستعاض بذلك وبشعره الوجدانى الرائع عن شعر الطبيعة .

ومن روائع محرم قصيدته « الطبيعة وفتاة الريف » ، ورأيى أنه أوفى

---

(١) يميل : يعشق

حظاً فى شعر الطبيعة على قلته عنده من حافظ ابراهيم ، وقد شُغل كلاهما بالاجتماعيات والسياسيات بل وبالتأريخ الدينى كما يفعل محرم الآن فى إلياذته الاسلامية . قال :

بَكرتْ تصافحُ ضاحكَ النوّارِ بين المروجِ الخُضْرِ والأنهارِ
عذراءُ تستجلى (الطبيعةَ) ، طفلةٌ بلهاءُ ضاحكةٌ الى الأقدارِ
نقدتْ على الفجرِ الدُّجَى وحبتْ على صدرِ الصباحِ وأمسكتْ بنهارِ
أهدى اليها الحسنُ كلَّ فُنونهِ إهداءَ سَمْحٍ غيرِ ذى استئثارِ
فتنفّستْ من عاطرٍ ، وتبسّمتْ عن ضاحكٍ ، وتلألأتْ عن وارِ

ومنها :

يا أختَ مشرقةِ النجومِ مَلاحةً وطهارةً فى هيبةٍ ووقارِ
أنقمتِ بعضَ هِناتِها فحقرتِها ونزلتِ من فلكٍ لها سيّارِ
أهلاً بموكبكِ البهىِّ يحفُّه ملءُ المحاسنِ منكِ والأنوارِ
شرفُ (الطبيعةِ) فى يديكِ صحيفةٌ مزدانةٌ بنفائسِ الاشعارِ

والقصيدةُ مزيجٌ من الوجدانيات وتقدير الجمال الطبيعى وكلها على هذا النسق البليغ الذى اشتهر به أسلوب محرم الكلاسيكى . وقد فات محرم الآن سنَّ الكهولة ولكن روحه ما تزال فتيةً ، وهو فى شعره الوجدانى يرسل نفسه على سجيتها فيبدع أيما إبداع ، ولذلك يحترمه المحافظون والمجددون على السواء لأنَّ له نصيباً محسوساً من مذهبيهما ، ومن هذا منشأ أسفنا على انصرافه فى السنوات الأخيرة خاصة عن شعر الطبيعة والوجدان .

وشبيهٌ به ولكن دونه فى الطاقة الشعرية الشاعران أحمد الكاشف وأحمد نسيم ، وشعر الطبيعة لديهما ضئيل ، وهما يعدّان من مدرسة البارودى

ونعتقد أن روّاد الشعر الطبيعى فى مصر هم مطران وشكرى وأبو شادى. ولمطران فضلُ السبق على الشعراء ، وفضلُ التوجيه الى موضوعات الطبيعة ، وقد أثّر على الأدباء المجددين ، وله قصائد منوّعة فى الطبيعة تُعَدُّ من عيون الشعر ، وهو رائدٌ متمصرٌ انطبع بطابع هذا الوادى وخدمه بكل جوارحه عمراً طويلاً ، فأصبح أدبُه معدوداً من صميم الأدب المصرى .

ومطران يمزج الطبيعة بالوجدان ، وحيناً يتناولها فى استقلال . فمن نماذج قصائده فى النوع الأول قصيدته الموسيقية الحلوة « تذكارات الطفولة » التى يقول فيها :

هل تذكرين ونحن طفلانِ عهداً بزحلةَ ذكرهُ غُنمُ
إذ يلتقى فى الكرم ظلاّنِ يتضاحكان وتأنس الكرمُ ؟

ويصف فى سياق هذه القصيدة نهر البردونى بزحلة فيقول :

متخللاً خضر البساتين متهللاً لتحية الشجرِ
متضاحكاً ضحك المجانين لملاعب النسمات والزهرِ

وفى قصيدته الوجدانية « بدرى وبدر السماء » يقول :

لم أنس حين التقينا والروضُ زاهٍ نضيرُ
إذ العيون نيامٌ والليلُ راهٍ حسيرُ
نشكو الغرام دعاباً ورب شاك شكورُ
وفى الهواء حنين من الهوى وزفيرُ
وللمياه أنين تذوب منه الصخورُ
وللنسيم حديث على المروج يدورُ
وللأزاهر فكرٌ يرويه عنها العبيرُ

والبدرُ فى الغيمِ يختفى آناً وآناً يثورُ
تتناظرُ رائعاتٌ مرآتهنّ الغديرُ

وقصيدتُه « المساء » من روائع الشعر العربى . اسمع اليه يناجى الحبيبة ، مازجاً ذلك بتصوير مشهد الغروب الجليل :

ولقد ذكرتُكِ والنهارُ مودِّعٌ والقلبُ بين مهابةٍ ورجاءِ
وخواطرى تبدو تجاهَ نواظرى كلمى كدامية السحاب ازائى
والدمعُ من جفنى يسيل مشعشاً بسنا الشعاع الغاربِ المترائى
والشمسُ فى شفقٍ يسيل نضارهُ فوق العقيق على ذرى سوداءِ
مرّت خلال غمامتين تحدّراً وتقطرت كالدمعةِ الحمراءِ
فكأنّ آخر دمعةٍ للكون قد مُزجت بآخر أدمعى لرثائى
وكأننى آنستُ يومى زائلاً فرأيت فى المرآةِ كيف مسائى !

* * *

وله قصائد أخرى فى مثل هذه الطلاقة والوحده الأسلوبية ، وله أيضاً قصائد مستقلة فى الطبيعة ، ونمثّل لهذا النوع بقصيدة « الزنبقة » التى جاء فيها :

إنما النرجسُ ابتسامةُ فجرٍ ألطفتْ نسجَها يدا (نيسانِ)
قام فى حلةِ البياضِ فكانت ثوبَ روحٍ لا ثوبَ جسمٍ فانى

* * *

ومن هذه النماذج تتجلى محبةُ مطران للطبيعة ، ونزوعه الفطرى لبناتها الصامتة والناطقة ، دع ما امتاز به أسلوبه من جمال الوحدة ، ودقة الوصف مع لمحات الحنان .

ويعقب مطران شكرى وهو من أركان النهضة الأدبية الحديثة فى مصر ومن شعراء الطبيعة المطبوعين ، وقد تزوّد من مفاتنها فى انجلترة ، وناجاها مناجاة عذبة فى قصائده التى امتازت بطاقتها الشعرية . نذكر من تلك القصائد قصيدة « عابدة الشمس » وهى مناجاة زهرة العباد وهى تستقبل الشمس ، وترخى أجفانها ـ كما يقول ـ عند الغروب ، كما يرخى العاشقُ أجفانه عند مناجاة حبيبته ! وقصيدة « الصحراء » وهى قوية الطاقة الشعرية ، وإن كانت جافة الصياغة ، وقصيدة « الحسن مرآة الطبيعة » وهى لمحات من جمال الطبيعة ودعوة لمشاهدة وجه القمر والتملى بجمال الزهر . ولشكرى قصائد أخرى فى صميم الطبيعة نذكر منها « عيون الندى » و « أنفاس السحر » ، وهذه تضم خواطر نفسانية عابرة ، ويخيل إلىّ أن شكرى شعورىٌّ أكثر منه رجل تفكير عميق . وإليكَ مثالاً من شعره الجديد الذى نشره مؤخراً فى مجلة (الرسالة) [1] ، وهذا المثال نأتى به دون اختيار ، وهو قصيدة عن « الشتاء فى انجلترة » يصف فيها مرأى الدنيا والثلج متساقط على الأرض وعلى المنازل والأشجار ، قال :

نشر الضريبُ على البسيطةِ حُلّةً بيضاءَ تمحو غبرةَ الغبراءِ
يسعى على وضحِ النهارِ كأنما يسرى الفتى فى ليلةٍ قمراءِ
فكأن نورَ البدرِ ما حلّى الثرى برواءِ تلك الحلةِ البيضاءِ
غلب البياضُ على اصفرارِ أشعةٍ تهب النهارَ من اصفرارِ ذكاءِ
وعلى المساكنِ كسوةٌ منه كما تعلو المفارقَ شيبةُ الشمطاءِ

ومن شعره الجميل فى الطبيعة قصيدته فى « وصف البحر » ، وهى

---

(١) مجلة (الرسالة) ، العدد ١٢٩ ـ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥ ، السنة الثالثة .

من روائع ديوانه العامر ، لبراعته فى مزج الوصف الطبيعى بالوجدانيات .
قال :

تناءتْ بكَ الأمواجُ وهى نوافرُ ... وجاءتْ بكَ الأمواجُ وهى نوائرُ
كأنّ بها عجزَ المشيبِ اذا انثنتْ ... وعزمَ الشبابِ الغُرِّ وهى بوادرُ
فنَمْ نومةَ الظلِّ البطيءِ مَسيرهُ ... وثِبْ وثبةَ اللهفانِ حين يُكاثرُ
فيا رُبَّ حلمٍ خاملِ البطشِ هادىءٍ ... ضمنتَ ، وجهلٍ شرُّه متطايرُ
كأنَّ لنا من لجِّ مائكَ واعظاً ... بليغاً له مما أثرتَ زواجرُ
لحتكَ والأمواجُ فى وثباتها ... عساكرُ حربٍ قد تلثّمها عساكرُ
فبينا يُريقُ الضوءُ فوقكَ ماءَهُ ... وتجرى عليك الريحُ وهى خواطرُ
ويتلو عليك الصائدون عناءهمْ ... يرجّعه لحنٌ من الماءِ ماثرُ
ويُسمعك الملاّحُ من شجورِ قلبهِ ... أحاديثَ قد تاقت لهنّ الحرائرُ
اذا الجوُّ جهمٌ والرياحُ كتائبٌ ... وإذْ أنتَ مقبوحُ السريرةِ غادرُ
وربَّ سفينٍ يقرع النجمَ مجدُها ... تقاذفَها مستوفزُ اللجِّ هامرُ
يروّعها فى كلّ هوجاءَ موعدٌ ... ويسعى لها قبرٌ من الماءِ سائرُ
فليس الغمامُ الغمرُ إلاّ رياحُها ... وما المرسلاتُ الهوجُ الاّ الهوامرُ
وما ذلك اللجُّ الذى فى سمائها ... بأهدأَ مِن لجٍّ نمتْه الزواخرُ
إذا ذكر الملاّحُ زوجاً وصبيةً ... طغى شجنٌ فى مرجلِ الصدرِ فائرُ
ينفّس عنه بالغناءِ ، وكفُّهُ ... تقيمُ على جفنٍ به الدمعُ حائرُ
وتذهل عن مهدِ الوليدِ فتاتهُ ... إذا ما رمتْها بالوعيدِ الزّماجرُ
وما هى الاّ دولةٌ طارَ شأنُها ... فأوحتْ إليها بالقضاءِ المقادرُ
وما هى الاّ صولةٌ ثمّتَ انجلتْ ... وأكبرُ غرقاها المساعى البوائرُ !

وربما عُدَّ أبوشادى شاعر الطبيعة الذى لا يُجارَى فى مصر ، ومحبتُه لها محبةٌ صادقةٌ حقيقيةٌ .

ولا نكون مغالين إذا قلنا إن هذه المحبة بلغت منزلة الإيمان من قلبه ، وله فيها ثورة منقطعة النظير ، تُعَدّ موضع فخر الأدب المصرى الحديث ، ومن الصعوبة بمكان أن نتخيّر من شعر هذا الشاعر ، ولكننا نذكر من بين قصائده فى أول ديوان له (أنداء الفجر) مقطوعة « بنات الخريف » يكنى بها عن الرياح ، وفيها تتجلى الهزّة الشعرية والطلاقة الفنية. يقول :

هلمّى ! هلمّى ! بنات الخريفْ
وطُوفى وطُوفى بهذا الحفيفْ
نراكِ بأوهامنا حائرهْ
كباحثةٍ عن تراثٍ فقيدْ
وقد حُرِمَتْ منه فى يوم عيدْ
فتمضى بلهفتها سائلَهْ !

* * *

نراكِ تطوفينَ وَلْهَى شريدَهْ
تهزّين حتى الغصونَ الوحيدَهْ
وتذرين حتى الرياحَ التى
تظنّين فيها خفايا الجمالْ
وقد حَجَبَتْها أيادى الليالْ
فهل تنتهينَ الى غايةٍ ؟

وقصيدة « وحى المطر » بنفس الديوان ، وقد هتف بها الشاعرُ فى أوائل الشتاء جامعاً بين الطبيعةِ والحبِّ فى نفسٍ واحدٍ ، فقال :

أنا ظامىءٌ والكلُّ حولى ظامىءٌ فتقطّرى يا سُحب كيف حننتِ

هذى الغصون تناولت ما خصَّها ولبثتُ فى ظمْئى لوحيكِ أنتِ
تتساقط القطراتُ مِن يدِ زهرةٍ ليدٍ لأخرى ، والجميعُ سُكارى
وأنا الوحيدُ ، فأين أين حبيبتى حتى تردَّ جوى وتطفىء نارا ؟
هلاَّ بعثتِ الى دفينِ شعورها برسالةِ الحبِّ الوفىِّ الباكى
فلعلَّها تأتى وتنثر عطفَها كالقطرِ فوق الزهرِ والأشواكِ ؟!

وقصيدة « أنفاس الخزامى » وهى قصيدة فريدة فى طرازها ، ولم يسبق لشاعر مصرى من قبل أن فكر فى هذه الزهرة ، وانتبه لوجودها ، ولعلَّ الذى نبهه اليها اشتغاله بتربية النحل من عهد الفتوة . اسمع اليه يقول :

أىُّ عطرٍ فاقَ أنفاسَ الخزامى فى حنانٍ يملأُ الروحَ سلامَا ؟
بِنتُ (مصرٍ) فى حياةٍ زهرةً وخشوعاً وسلاماً وابتساما
لا يراها غيرُ مَنْ كانت له رُوحُها ، أو مَنْ يحاكيها غراما
تجذبُ النحلَ الى أكوابِها وهى سَكْرى ترشفُ الشهدَ المُداما
تتوارَى عن عيونٍ لا ترى دقةَ الحسنِ وأخرى تتَعامى

ثم يخاطبها فى فلسفةٍ متفائلةٍ يقول :

أيها الأنفاسُ طِيبى وانشرى خطراتِ الحبِّ حتى يتسامَى
كم وقفنا فى مجالى نشوةٍ عند مَرآكِ فُتوناً واحتشاما
لم نُقبِّل غير معنى حائمٍ حولنا منكِ عشقناه دواما !

وهذه القصائد كلها من بنات أحلامه فى عهد الصبا والفتوة ، وله قصائد أخرى منتشرة هنا وهناك فى دواوينه الكثيرة ، ولا سبيل لجمعها إلا فى كتاب مفرد . ولم يجمع الأديبُ الناقدُ محمد عبد الغفور إلاّ باقة منها فى مختاراته الموسومة (الريف فى شعر أبى شادى) . ونقطف من هذه الدواوين قصيدةَ « حلم الفراشة » — ص ٧٧ بديوان (الينبوع) :

تطيرُ إلى الزّهر فى خِفّـةٍ لتمتصّ منها الرحيقَ الشّهىّ
وما تتمنّى سوى زهـرةٍ تُبادلُها لونَـها القـرمزىّ
تحومُ عليهـا وتنشقُ منهـا جميلَ الشّذى ، فالشّذى نفسُها
وتأبى التحوّلَ فى النّورِ عنها فاحساسُ زهرتِها حسُّـها
كأنّا بزهـرتِها أصبحتْ فراشتَنا الحـلوةَ العائرهْ
وتلك الفراشةُ حين انتشتْ على النّـورِ زهرتُـها الطائرهْ
تَبادَلَـتَـا ما لـكلتيْهما من الحظّ والصورةِ الفاتنهْ
فصانَ التبـادلُ نفسيْهما وعاشا به عيشـةً آمِنَـهْ !

* * *

كذلك تحـلمُ فى طـيِّها فراشتُـنـا الحُـرّةُ الباسمَهْ
فدعْـها تغازلُ فى وَهْـمِهَا خيالاتِ ساعاتِها الحالمَهْ !

وهى قصيدةٌ أثيريةُ الأسلوب ، وأثرٌ من آثار التجلى اللاشعورى فى الطبيعة ، وقصيدته فى « حضن الريف » ص ـ ٩٢٦ من ديوان (الشفق الباكى) ـ وهى كما يقـول شكرى من الشعر الصافى ، وفيهـا وصفٌ بديـعٌ لمرائى الطبيعة فى الريف ، وتفسيرٌ لمعانى تلك المـرائى تفسيراً روحياً فى أسـلوب مفعم بالحنـان ، وقصـيدة « بعـد الصيف » فى ديوان (أشعة وظلال) ص ٨٧ ، وهى مع طلاقتها ذات صياغـة فنية أصيلة ، نقطف منها قوله :

إضحـكى يا رمالُ مِن هديرِ الميـاهْ
غاب مـلكُ الخيالْ وتجـلى سـواهْ
ذاكَ بحرُ الدموعْ مِن بكاء الزمانْ
فهـو دوماً مَروعْ مِن مآلِ الهـوانْ

وله فى ديوانه (الريف) قصائد نيّرة خاصة بالطبيعة ، نذكر منها قصائده « زنبقة المطر » و « مملكة النحل » و « حديث الجميزة » و « الأرز الغريق » و « الشروق الهادىء » ، وغيرها .

ولأبى شادى فضلٌ باقٍ على أدب الطبيعة : ذلك أنه فسّر مرائيها تفسيراً روحياً ، لاندماج ذهنه بأحداثها ، كما أنه يُعدّ فى طليعة من زاوج بين الطبيعة وبين النظرات التصوفية والعلمية ، وله فى هذه الناحية قصائد مفردة ، أبدعُها فى رأيى قصيدة « طريق الحزين » التصوفية وهى منشورة بديوان (فوق العباب) ، وقصيدته « تصوف الطبيعة » التى يقول فيها إن الطبيعة تصوفت فى فصولها الأربعة ، ففى الربيع المزدهر معانى الاشراق الروحى ، وفى حر الصيف رمز التحرّق والوله ، وفى تجرّد الشتاء معانى الصوم والزهد ، وفى حنان الخريف حنان الصوفى !

كما أنه يُعتبر خير مَن وجّه الأدب الطبيعى إلى معانى النور والظلال والأطياف ، وله فى هذه الناحية شعرٌ استوعب كثيراً من معانى النور ، ومن ذلك قوله يخاطب « النور الأسود » (ديوان « الكائن الثانى » ـ ص ٢٨) :

أيها النورُ أنتَ فى ظلماتٍ خافقاتٍ بموجكَ النَّفَّاذِ
ليت شعرى أتلكَ نورٌ عميقٌ مستقلٌّ ببأسكَ الأخّاذِ
حينما نحن فى ظلامٍ عجيبٍ من ضياءٍ يفوت معنى الضياءِ
شوّهته مفاسدٌ طائشاتٌ من جنون الحياةِ والأحياءِ ؟ !

وأنت تراه يدعم شعرَ النورِ بحقائق العلم الغامضة ، وهو فى هذا منفردٌ غيرُ مسبوقٍ ، إذ يرى أن فى الظلام نوراً ، وهذه فكرة علمية عجيبة بثها فى قصائد أخرى مثل قصيدته « أشعة الظلام »

التى جاء فيها :

فيا طالما صاحبتُ رغمَ دجنّةٍ أشعةَ إعجازٍ وفاتك نورُ
تصاحب أحلامى فتوقظ خاطرى ومثلكَ غافٍ فى الضياء حسيرُ

ولهذا الشاعر قصائد أخرى فى الطبيعة تحمل طابعَ الأصالة والذكاء وتنبض بروحه الشاعرة ، وهذه القصائدُ جميعاً هى آيةٌ مبصرةٌ شاهدةٌ على اندماج هذا الأديب فى الطبيعة اندماجاً حقيقياً . وإذا كان قد تأثر من مطران فى بداية حياته الأدبية ، فهو تأثر توجيهى ، أما الآن وهو فى عهد الكهولة فإنه يُعدّ فى نظرنا منارةَ النهضة الأدبية الشعرية ، وبها يستضىء كثيرٌ من أدباء الشباب المجدّدين .

* * *

وإلى جانب مدرسة مطران وشكرى وأبى شادى تقوم مدرسةٌ أخرى كان لها أثرها فى الشعر المصرى ، وعلى رأسها العقاد والمازنى ، ولهذين الأديبين شعر فى الطبيعة غير منكور ، ولكنه شعر قليل والطبيعة فى أكثره ليست مقصودة لذاتها كما نجد ذلك فى قصيدة « الوردة الذابلة » للمازنى وقصيدة « البحر » للعقاد التى استهلها بقوله :

يا ويحَ قلبكَ من هدَفْ صال المسدَّدُ أم صَدَفْ !

فهاتان القصيدتان وجدانيتان ، وقد اشتركت الطبيعة فى الإيحاء بهما .

أما المازنى فقد هجر الشعر الى النثر ، والعقاد سكت الآن عن الشعر واكتفى بطائفة من الدواوين أخرجها ، وقد احتضنت عدداً من القصائد الطبيعية ، نذكر منها « زهرة القرنفل » و« الخريف والورد » و« الفجر الأول » و « على النيل » و« روضة ساكنة » و« النهر النائم » . وهو فيها يميل الى بثّ الفكرة والتعبير عن حالات وجدانية : ففى قصيدته روضة ساكنة (ديوان

العقاد ـ ص ٢٠٩) يقول :

روضتي ظلها الموتُ وطلتها الحياةُ
هجعت منها ذُراها والجذوعُ الراسياتُ
وغفت أطيارها فهي نشاوى حالماتُ
سكنت نفسي اليها واحتوتها النفحاتُ

وفي مقطوعة « النهر النائم » يقول :

تمهَّلْ يا نسيمُ ولا تكدِّرْ نعاسَ النهر بالهمسِ الضعيفِ
وقرّي يا طيورُ على الحوافي وكفّي يا غصون عن الخفيفِ
لعلَّ النهرَ ينطق وهو غافٍ بسرٍّ فيه أو حُلمٍ لطيفِ
ويحكي طيفَ هاتيكَ الليالي ليالي الوصل في عهد الخريفِ

وللعقاد في ديوان (وحي الأربعين) بعض قصائد في الطبيعة ولكنها جافة الصياغة ، وطاقتها الشعرية غير ممتازة بالنسبة الى مستوى شعره ، نذكر منها قصيدته « على الشاطىء » ص ٣٠ ، وهي كالصخرة العاتية الملقاة في نهر عذب ، يقول فيها :

وَرَدُوا البحرَ فأهلاً بهمُ ـ يا بحرُ ـ أهلاً
أنتَ لا تحفل منهم مَنْ وَلى أو من تولّى

وقصيدته « النور » (ص ٣٦) ، وليس بها من الخواطر الشعرية ما يستحق النشر ، وقد تُعدّ قطعة نثرية لا بأس بها ، ونحن نذكرها برمتها :

النورُ سرُّ الحياهْ النّورُ سرُّ النجاهْ
النّورُ وحيُ النهى النّورُ وحيُ الصلاهْ
النّورُ شوقُ الفتى النّورُ شوقُ الفتاهْ

إنّما تحته بالرّوح لا لمحَ العيون الخواهْ
ما تبصر العينُ من معناه إلا أداهْ
هذا سبيلُ الهدى لا ما افتراه الهداهْ!

وأظهرُ ما للعقاد فى الطبيعة قصيدته الطويلة عن « الكروان » ، وفيها خواطر وأفكار يقبلها النثر ، ويأباها الشعر ، وطول القصيدة باعد بينها وبين التركيز ، كما أضاع منها الوحدة .

أما شعر المازنى فى الطبيعة فمن أشهره كما أسلفنا قصيدته « الوردة الذابلة » (ديوان المازنى ص ٤٢) وفيها يقول :

أرَجٌ كأنفاسِ الحبيبةِ حين تُدْنِى منكَ فاهَا
وغلائلٌ باتَ الغمامُ يجودُها حتى رواهَا
ذبلتْ وأخلقَ حُسْنَها باليت شعرى ما دهاهَا؟
روّيتُها بمدامعى لو كان يحييها حياهَا
وضممتُها ضمَّ الحبيبِ بِعسى يعودُ لها صباها
وزفرتُ علَّ زوافرى تُجدى ، فزادتْ فى ذواهَا
فرميتُها ، وبرغمِ أنّ فى أننى مَنْ قد رماهَا !
ولو استطعتُ حنيتُ أضلاعى على ذاوى سَناهَا
وجعلتُ صدرى قبرَها وجعلتُ أحشائى ثراهَا

وفى هذه القصيدة روح غنائية لطيفة تُوائم ما فيها من وصفٍ وعاطفةٍ . ومن حسناته كذلك قصيدته « الورد » وهى مستهلّ ديوانه المذكور :

خدُّه أحسنُ أم ثغرهُ بل كلا الحسنينِ فتّانُ
كلُّ جزءٍ من بدائعهِ لفنونِ الحسنِ بُستانُ
لى كؤوسٌ من مراشفهِ ومن الأطيارِ ندمانُ

كلما قبّلتُه وجنتَه خلتُ أنّ الوردَ خجلانُ
ظمئى ترويه قبلتُه كيف ريّى وهو ظمآنُ ؟ !
ربّ طلٍّ بات يكلؤُه فكأنّ الطلّ غيرانُ !
وكأنّ الوردَ إذْ سطعتْ منه ريحُ الطيبِ نشوانُ
أنا أخشى أن أُراعيَه ما لهذا الوردِ جثمانُ !
كيف لا تذوى غلالتُه وهى للأعينِ ميدانُ ؟ !

* * *

ومن حسن الحظ أن سعد الجوّ الأدبى بشعراء من الشباب عبروا عن خواطرهم ومشاهدهم فى الطبيعة فى قصائد ممتعة ، لا تقلّ عن قصائد الروّاد السالفين أصالةً وجمالاً ، ونذكر من هؤلاء الشعراء الشاعر الوجدانى حسن كامل الصيرفى وهو وترٌ من أوتار الطبيعة الرقيقة ، وله شعر رمزى حنون فى ديوانه (الألحان الضائعة) ، ففى قصيدته « حياتى » يقول :

إذا الفجرُ حرّرَ منى الجفون وأيقظ فىّ القوى الخائرهْ
وهبّ نسيمُ الصباح العليل يوزّع أنفاسَه العاطرهْ
ورنّت على راقصات الغصون سواجعُ كالأنفس الشاعرهْ
صحوتُ أناجى خيالاً جميلاً وفى ناظرىّ رؤى ساحرهْ
فآخذ قيثارتى فى هدوء أوقع ألحانىَ العابرهْ !

ولهذا الشاعر الذى يذخر له الأدب المصرى الحنانَ ، معانٍ أصيلةٌ فى الطبيعة ، فقد شبّه شذى الزهر فى إحدى قصائده بنفثاته الحسرى فقال :

نعم ! أنت مثلى أيها الزهرُ مرغمٌ وما هذه الألوان غير شياتِ
وما العطر إلا أنةٌ وتوجعٌ كأصداء أنغامى ورجع شكاتى !

وله قصيدة « الشاطئان » ، وهى تماثل جميع قصائده ذات الأسلوب

الأثيرى ، وقد جاء فيها :

تعالى فى حمى الفجرِ نجـلٌ بينَ الأزاهيرِ
فهـذا ملكُ الشعـر يناجى ربةَ النـورِ

ومن شعراء الشباب الغارقين فى الخيال محمد عبد المعطى الهمشرى ، وله أصالة فى بعض قصائده ، وقصيدته الطويلة « شاطىء الأعراف » من وحى القرية الجامعة لمرائى النيل ، وأشجار الصفصاف ، والجميز ، وهائش الغاب ، كما يقول فى مقدمته لقصيدته المذكورة ، ولعلى لا أكون مخطئاً إذا قلت إن هذا الشاعر يحتذى ألفرد دى موسيه فى قصيدته السالفة الذكر . وله قصيدة « عاصفة فى سكون الليل » وهى جيدة ، ومما جاء فيها :

إننى يا ليلُ أحكى غنوةً غُنيتْ فيكَ على مرِّ السنينْ
واستحالت فى البلى قبرةً تتغنىّ فى دجى وادى المنونْ !

وله قصيدة « مناجاة الفراش » وبها معانٍ لطيفةٌ ، ولكنها ليست كاملة التجربة الشعرية ، ومما جاء فيها قوله :

يا طائراً لا يكفُّ هل أنت نجمٌ يرفُّ ؟
أم أنت خطفةُ نورٍ ؟ أم أنت قلبٌ يخفُّ ؟
تطير ندباً طروباً فوقَ الزهورِ تدفُّ

ومن شعراء الشباب الذين لم يبلغوا الثلاثين الشاعر الغنائى محمد رجب المحامى ، وله مستقبل أدبى واعد ، وهو رومانتيكى النزعة بعيد الخيال ، موسيقى الأسلوب ، يحسن انتقاء ألفاظه ، وهو من محبى الجمال الانسانى والطبيعى ، وأغلبُ شعره وجدانىٌّ ، ويمزجه بعض الأحيان بأحداث الطبيعة . وقد نشر فى مجلتى (أبوللو) و (الامام) نماذج منه ، ونذكر

له فى وصف مقدم الفجر قوله :

لحنُ الطبيعة فى أنشودة الفجرِ لحنُ الخمائل والأمواه والزهرِ
لحنٌ سرى وشعاعُ النور يعزفُه على دقائق أنداء من المورِ
لحنٌ يُشيِّع ليلاً طال معتسفاً على ضنينٍ بعهد الودِّ والذكرِ
ويقطع النومَ ـ والأحلامُ طيعةٌ على الخليِّ ويذرى أينما يسرىِ
لحن عليه جيوش النور زاحفة والليل يدبر فى وهن وفى ذعرِ

* * *

ولقد أتحف شعراؤنا الوجدانيون شعر الطبيعة بنفحات قلوبهم المتلهفة وعلى رأس هؤلاء الشعراء الدكتور ناجى ، وهو من أقوى شعرائنا الوجدانيين شاعرية وأصفاهم طبعاً ، ونذكر كذلك الشاعر العاطفى صالح جودت وهو من شعرائنا الموسيقيين البارعين . أما ناجى فله طائفة من القصائد الوجدانية الملوَّنة باللون الطبيعى ، ومن هذه القصائد نذكر « ليالى ناجى » التى يناجى فيها حبه قربَ النهر ، فيقول :

يا نهرُ روَّيتَ كلَّ ظامى فراحَ ريَّانَ مَن يَذُقْ
فكن رحيماً على أوامى فلى فمٌ بات يحترقْ

* * *

تمرّ ذكرى وراءَ ذكرى وكلُّ ذكرى لها دُموعْ
وتعبر المشجياتُ تترى من كلِّ ماضٍ بلا رجوعْ

* * *

يا أيها النهرُ جئتُ أبكى وجئتُ أشكو وجئتُ أنسى
طال عذابى وطال شكى ومات قلبى وما تأسّى !

وفى قصيدة « الفراشة » التى يمثل بها حبيبته يقول :

فراشةَ روحى تعالىْ وثوباً ستلقين قلباً اليكِ يشبْ
اذا ما امتزجنا احترقنا معاً ونلنا الخلودَ بهذا العطبْ !

وفى قصيدة « خواطر الغروب » يقول :

قلتُ للبحر إذْ وقفتُ مساءَ : كم أطلتُ الوقوفَ والإصغاءَ
وجعلتُ النسيمَ زاداً لروحى وشربتُ الظلالَ والأضواءَ !

وفى قصيدته « صلاتى » يقول لحبيبته فى طلاقة :

وأنتِ تهلّلُ الفجرِ وبسمتُه على الأفقِ
وحيناً أنتِ النهرِ وحزنُ الشمسِ فى الغسقِ
وأنتِ حرارةُ الشمسِ وأنتِ هناءةُ الظلّ !

والشاعر الليريكى صالح جودت لم ينس الطبيعة ، واتخذها لوناً لتظليل عمله الوجدانى ، ولهفته الملتهبة تطغَى على كل نزعة أخرى ، ونقطف من قصائده أنشودة « عهد المياه » ، وهى من وحى الثغر الجميل الذى عانقته فيه أفروديت الساحرة . يقول على ذكرى هذه الساعات الهاربة فى الأسكندرية :

تظلُّ تعاودنى الذكرياتُ وترقص فى خاطرى كلَّ حينْ
وتضحك فى القلب مجنونةً بعهدِ المياهِ ، فهل تذكرينْ ؟
هناك على الشاطىء اللؤلؤىِّ وتحت مظلتكِ الوارفهْ
جلسنا نغنّى نشيدَ الغرامِ على نغمِ الموجةِ العازفهْ !

ومن شعراء الشباب الذين توزّعوا بين الوجدان والطبيعة نذكر عبد العزيز عتيق وسيد قطب وفايد العمروسى ، مع اختلافهم فى المزاج

والتناول ، فأمّا عتيق فتغلب عليه الوجدانياتُ ، وله قصائد معدودة في الطبيعة أهمها في نظري قصيدته « شاطىء البحر » ، وهي من وحي ثغر الاسكندرية ، وفي الفقرة الثانية من هذه القصيدة يقول :

مرحباً بالجمالِ يعبث باللبِّ ويَخفَى في لُجة الرجّاف
نزل الحسن في حمى اليمِّ يبدى فِتنَ النور في بديع ائتلافِ
فاذا الموجُ راقصٌ من سرور للعذارى ، يُريهنه كلَّ خافِ
وكأنَّ الأمواجَ وهي تُلاقي كلَّ جسم مهفهفٍ شفّافِ
قُبلةُ العاشق المروَّع قد خفَّ اليها في رعشةٍ وارتجافِ
أيها الموجُ ـ لا عليكَ ـ تمتعْ بمئاتِ الحسانِ والآلافِ !

وله قصائد أخرى منشورة في ديوانه الأول (ديوان عتيق) مثل « الشجرة الذابلة » و « زهرة الفل » التي جاء فيها :

زهرة تبسم عن ثغر رقيقْ سكن الحسنُ بطيات لماها
هاتها يا صاح ، إني لا أطيق أن أراها ثم لا ألثم فاها !

وفي ديوانه (أحلام النخيل) قصائد أخرى من وحي القرية ، ومنها قطعة « اليمامة » و «الشاعر الصامت » التي يقول فيها :

في ظلال النخلاتِ والوردِ الحالماتِ
جلس الشاعرُ حيرانَ كثير الحرقاتِ
صامتاً في نفسه قد عاف طعم الكلماتِ
تُزبد الدنيا وتُرغي وهو في نومِ سباتِ !

ثم يقول :

مرحباً بالصمتِ يحيي ما وهى من عزماتي

مرحباً بالصمت أخفى فيه سرّ النكبات !

* * *

وللشاعر المتأمل سيد قطب بعض قصائد فى الطبيعة احتواها ديوانه (الشاطىء المجهول) ، وهذا الشاعر يسير فى ظل العقاد فى ميله للشعر التفكيرى ، وديباجته أقل إشراقاً من عتيق وإن كان جوّه الشعرى أكثر فوحاً . وله قصيدة مشهورة هى مناظرة بين نخلتين إحداهما طويلة والأخرى قصيرة ، من وحى ليلة خريفية مقمرة قضاها فى صحراء المقطم الموحشه . اسمع الى الصغيرة منهما تقول للكبيرة :

حدثينى لم نشقى ؟ حدثينى كم سنلقى ؟ حدثينى كم سنبقى ؟

فتجيبها الكبيرة قائلة :

أنا ، يا أختاهُ ، لا أدرى الجوابْ ودفينُ السرّ لم يُكشَفْ لنا
غير أنا حائراتْ * والليالى العابثاتْ * تتجنى ساخراتْ * لاهياتْ !

ثم يختم هذا الحوار بقوله :

ثم ساد الصمتُ كالطيف الحزينْ
وتسمعتُ لأقدام السنينْ
وهى تخطو خطوةَ الشيخ الرزينْ
هامساتٍ فى الرمالْ * منشداتٍ فى جلالْ * كلُّ شىء للزوالْ * والشتاتْ !

وهذه القصيدة هى خير ما فى الديوان لما حوته من معانٍ شعريةٍ ، ولما لها من ديباجة طليقة متحررة من الأوزان المعروفة . وله أيضاً قصيدتان عن الطبيعة إحداهما « العودة الى الريف » والثانية « ليلات فى الريف » . وقد جاء فى الفقرة الثانية من القصيدة الأخيرة قوله :

يا جمالاً بريف مصر قريراً هادئ البال في خشوع وقور
لستُ أنسى ليالياً فيك مرتْ هُنَّ أطيافُ عهدنا المأثور
حين نسرى والبدرُ ينشر ضوءاً فوق سهلٍ كالعيلم المنجور
بينما الزهرُ حالمٌ في رباه وغصون مهدّلات الشعور
وخريرُ الأمواهِ ساجٍ رتيبٌ مثل شدوٍ في عالم مسحور

أما الشاعر الثالث من هذه الفئة فهو الشاعر فايد العمروسى ، وهو أقوى طاقة شعرية من سيد قطب ، وأرهف شعوراً ، وله نبض شعرى مستقل . وهو وإن كان يجرى على الأسلوب التقليدى إلا أنه يجارى المدرسة الجديدة فى المعانى الشعرية كزميليه . وآخرُ ما قرأتُ له من شعر الطبيعة قصيدة « فى شعاع الفجر » يخاطب فيها الديك ، وفى بعض فقراتها أصالة فطرية . إسمع اليه يقول :

هاتِ هذا الجناحَ والريشَ والبسْ حُلّتى تزدهى بها وتفاخرْ
هاتِ هذا الصّياحَ أُعطيكَ فنى وقصيدى وما احتوى قلبُ شاعرْ
أنتَ تشدو إذا الظلامُ تولّى وأنا فى الظلام شدوى خواطرْ

وله قصيدة أخرى فى ديوانه الباكى (ألحان الألم) بعنوان « انك جميل » — ص ١٣ — جاء فى الفقرة الثالثة منها قوله مازجاً خواطره بمعانى الطبيعة :

إنَّ صمتَ الظلامِ فى روعةِ الليـ ـلِ جمالٌ يثير خفقَ جنانى
ووجومَ الأطلالِ وحىٌ بليغٌ يعمر النفسَ من جميلِ المعانى
وسكونَ الربيع فيضٌ قوىٌ عبقرىٌ يذيع سرَّ الزمانِ
وذبولَ الأشجار معنىً وديعٌ تتأسّى ببؤسهِ أشجانى
وابتئاسَ الرياضِ يُلهبُ نفسى فى أساها ، ويستثيرُ جنانى

وهاتان القصيدتان خيرُ ما فى ديوان هذا الشاعر ، الذى ملأ صفحات

ديوانه بالدموع والتنهدات ، والذى عبَّر عن ألمه فى جملة قصائد بنغمةٍ واحدةٍ ، لا تتفق مع الانفعال الأدبى العالى .

وهناك شاعران آخران من شعراء الشباب تحدثا عن الطبيعة مع غلبة النزعة الجنسية عليها ، وهما الشاعران مختار الوكيل والعوضى الوكيل ، فأمَّا الأول فقد ضَمَّ ديوانه (الزورق الحالم) عدداً قليلاً من القصائد الممتزجة باللون الطبيعى ، ومن ذلك قصيدته « ليلة النيل » التى وصف فيها القمرَ وصفاً جيداً إذ قال :

والهلالُ الوديعُ نايٌ عجيبٌ لحنهُ النورُ بالشَّذى عطَّروهُ

وقصيدته « الجدول الحالم » بها نفثاتٌ عذبةٌ من شعر الطبيعة ، وإن تكن موجاتُها الشعرية غير منسجمةٍ انسجاماً قوياً . وقد جاء فيها :

تدفَّقْ كشعرى بالحنانِ ولا تكنْ شحيحاً فهذا الزهرُ نشوانُ من ضمِّكْ
ووقِّعْ أناشيدَ الحياةِ على الحَصَى ودَعْ صادحاتِ الطير تشمل مِن لثمكْ
وسِرْ حالماً ما بين عشبٍ منمَّقٍ وبين شجيراتٍ تضاحكن من حُلمكْ

ومختار مع عذوبة أسلوبه ولطف معانيه ، فشعرُه الطبيعى يتزاوج بشعره الوجدانى ، وليس له فى الطبيعة شعر مستقل . وأما العوضى الوكيل فله بعض قصائد عن الطبيعة فى ديوانه الصغير (تحية الحياة) نذكر منها « الى النسيم » و « صدى النور » التى جمع فيها معانىَ عجيبة تتفق مع معانى أبى شادى فى مثل قصيدته « نور الشمس » بديوان (فوق العباب) ص ١٠٩ ، وقصيدته « الأشعة الصادحة » فى ديوان (الينبوع) ص ١١٦ — وله قصيدة أوروبية الروح فى « مقدم الربيع » نذكر الفقرة الاولى منها :

زَقْزَقَ العُصفُور فى أيكتهِ مرحاً مستبشراً : جاء الربيعْ !

وتغنى البلبلُ الصداحُ فى هامةِ الدوحةِ فى الصبحِ الوديعْ
قائلاً : يا طير قد جاء الربيعْ
غَنِّ يا طيرُ لقد جاء الربيعْ !

وبينما نجد لهذا الشاعر الفتى قصائد فى الطبيعة تنم عن ميله إليها ، إذ به يضعنا فى حيرة من صدق عاطفته الطبيعية ، وذلك لأننا نراه فى موضع آخر من الديوان يهجو الريف ، ويلعن مرائيه ، ويتلهف على حياة المُدُن ، وذلك لغلبة النزعة الجنسية عليه . اسمعه يقول :

ما أقبحَ الريف من رؤيا ومن سكنِ فانَّ فيه شقاءَ الرُّوحِ والبدنِ !

ويختم هذه القطعة الغريبة بقوله :

ما فيه من غادةٍ حسناءَ فاتنةٍ فكيف يهتاج نفسَ الشاعرِ الفطنِ ؟ !

وقد بقى من شعراء الشباب المهتمين بالطبيعة شاعران توجهت موضوعاتهما إليها ، وهما الشاعران محمود حسن اسماعيل وأحمد مخيمر ، ومن أحسن قصائد الأول « القرية الهاجعة » و « زهرة القطن » ، و « سنبلة تغنى » و « زهرة الفول » ، و «راهبة الضحى» يكنى بها عن الفراشة ، و «الناى الأخضر» التى يقول فيها :

زمَّارتى فى الحقولِ كم صدحتْ فكدتُ من فرحتى أطيرُ بها
الجدىُ فى مرتعى يراقصها والنحلُ فى ربوتى تجاوبُها !

ويعجبنى اتجاه هذا الشاعر إلى الموضوعات الطبيعية ، وهو فى طليعة شعراء الشباب الذين تحدثوا عن « الريف » ومن أكثرهم انتاجاً ، ولو تحرر أسلوبه من التقليد ومن الصناعة لعُدَّ فى مقدمة شباب الشعراء البارزين . وأما مخيمر فهو كزميله السالف فى التوجّه الى موضوعات الطبيعة ، وله مشاهدات شعرية لطيفة ، نذكر منها « قطرة الطلّ »

و « صفصافة النهر » و « أنفاس فى الظلام » و « نهر أبى الأخضر » التى استهلها بقوله :

ما أجملَ النهرَ ! ما أحلى تسلسلَهُ بين النخيلِ وبين العشبِ والشجرِ

وقصيدته « مناجاة القمر » تحوى معانى شعرية نذكر منها قوله :

فى نُورِكَ الحالمِ الجميلِ شذَى زهرٍ تنسمتُه باحساسى
من عالم السحرِ رحتَ تحمله لكلِّ ذى لوعة من الناسِ
يا حسنَ هذا الضياء منتشراً على غصونِ النخيلِ والآسِ

ويخيَّل إلىَّ أن هذا الشاعر والذى قبله تأثرا بأبى شادى تأثراً توجيهياً ، كما أنهما أفادا كثيراً من معانيه الشعرية الجريئة .

ولا أتحرج فى هذا الصدد أن أقحم نفسى بين زمرة من نظموا فى الطبيعة التى أشعر فيها بامتداد شخصيتى ، وقد تأثرتُ بكثير من مرائيها ، فعبرت عنها تعبير المتأثرين ، وأذكر من بنات خواطرى فيها القصائد التالية :

« من الأعماق » ، « دنيا الخيال » ، « وحى الظلام » ، « عزلتى » « لحن الحنين » ، « العزاء فى الطبيعة » ، « ظلال النور » ، « لوحة النهر » « الحجر الوادع » ، « لحن المطر » ، « لحن الكروان » ، « فى الظل » « القرفور » ، وقد جرت المقطوعة الأخيرة كالآتى :

يَطوفُ على النباتِ كمثلِ روحٍ تحوَّم حولَ أجداثِ نيامِ
ويرقص حوله رقصاً رقيقاً بلا صوتٍ ولا همسِ الكلامِ
ويمتصّ الحياةَ من النباتِ ويرسل بالنماءِ الى النباتِ
وفى حركاتهِ طيشٌ بريءٌ وفى أثوابهِ طُهرُ التقاةِ !

وقد تاقت نفسى أخيراً الى هجر القافية ، والى التعبير عن تأثراتى بالشعر الحرّ ، ومن نماذج هذا الشعر فى الطبيعة أذكر قصائد « مرح الطبيعة » ، « حيرة متجاوبة » « خطاب الى القمر » ، « صحبة الروض ، » « نداء خفى » ، « لذة الضياء » « زهرة البانسيه » و « الفراشة » ، وقد جاء فيها :

شهدتها فى الفضاء
تميس فى أحلام
كأنها الأقحوان
فى عبقها أرواح !

* * *

تطوف بالورد
تفضى له سرًّا
وتحمل القبلات
من خده الغضّ
وتشرب الألوان
من قطرة الأنداء
فى صحوة الفجر

ولا يجوز أن نغفل من شعرائنا المعروفين الشاعر على محمود طه ، وهو من الشعراء الوصافين المجيدين ، وله ديباجة عربية رصينة . وأجمل ما حوى ديوانه قطعة « المساء » ، وهى بعكس كثير من قطعه خفيفة المائية ، قريبة من الطبع الشعرى ، وتعتبر من التجارب الشعرية ، وقصيدته « ميلاد شاعر » المشهورة بها حنين إلى الطبيعة ، وقد جاء فيها :

وهنا جـدولٌ على صفحتيهِ يرقص الظلُّ والسنا الوضّاحُ
وعلى حافتيـه قام يغنيـنا من الطير هاتفٌ صدّاحُ
وفَـرَاشٌ له من الزهـرِ ألوا نٌ ومن ريِّق الشعاع جناحُ
دَفَّ فى نشوةٍ ينـاديه نوّا رٌ وعطرٌ من الثرى فوّاحُ
وهنا ربوةٌ تلألأ فيهـا خضرةُ العشبِ والندى اللمّاحُ
ونسيمٌ كأنّه النفَسُ الحـا ئرُ تُصْـغِى لهمسهِ الأرواحُ

وهناك شعراء ممتازون آخرون من شعراء الشباب الذين ترعرعـوا فى مدرسة أبوللّو ، نذكر منهم الشاعر المتأمل محمد سعيد السحراوى وفيه أصالة وميل إلى الرمزية ، وهو ينتقل إلى جو شعرى غامض ، ولكنه مشغوف بالتـأمل الفلسفى قبل التأمل فى الطبيعة ، والشاعر الوجـدانى حسن محمد حبشى وإنتاجُه ينم عن مستقبله النيّر ، وله بعض قصائد فى الطبيعة ، منها « ميلاد الفجر » من الشعر المرسل جاء فيها :

وقفَ اللّيْلُ خلفَ ضوءِ الصباحِ وقفةَ الصامتِ الحزينِ الأسيرِ
وعلى الغصنِ بلبـلٌ يترامى لحنـهُ بين باسمِ الأزهـارِ

ولا يفوتنا أن نذكر من الشواعر المصريات الشاعرة النابهة حكمت شبارة ولها شعر عاطفى ووصفى جميل شملَ من الطبيعـة وصف الصحراء ووصف البحـر ومشاهـد الأسكندرية ، ومن شـعرها فى وصف الصحراء ومناجاتها قولها (مجلة « أبوللّو » ، م ٢ ، ص ٩٩٦) :

ووجدتُ فى الصحراءِ رَجْعَ مشاعرى بغموضها ، ومن الغموضِ البادى !
والرملُ منبسطٌ الى أن يلتقى بالأفـقِ بـين تهلّلٍ وتهادى
والشمسُ تبكى لوعـةً ، وكأنّهـا محزونةٌ لفراقِ هـذا الوادى
والأرضُ تشجى ، والنسائمُ حلوةٌ تُهدى السلامَ لرائحٍ ولغـادى

وتقول : يا مَن بالجديدِ ترنَّموا هلاَّ ذكرتم لى قديمَ ودادى ؟
والآنَ والأُفقُ البعيدُ قد انبرى يرنو إلىَّ بقسوةِ النُّقَّادِ
أرسلتُ من قلبى تحيةَ مَنْ رأتْ هذى الطبيعةَ عزّةَ الزُّهَّادِ
وتصوَّفتْ فى عالَمٍ لا ينتهى حتى على الآبادِ والآبادِ !

والشاعرة جميلة العلايلى ، وقد ضمَّ ديوانها (صدى أحلامى) عدداً من قصائد الطبيعة ، يتجلى فيها شغفُها بها والتماسُ العزاء فى بناتها الناطقة والصامتة ، ومن بنات أحلامها نذكر قصيدة « الطير الشاكى » (ص ٦٦ من ديوانها) ، وقصيدة « خواطر الوحدة » و « طيور الربيع » و « تحية القمر » و « على شاطىء أسوان » ، ومما يروقنى من قصائدها فى الطبيعة قصيدة « الطير الهائم » (ص ٤١) وقد جاء فيها :

أليفٌ يرتِّلُ فوقَ الشجرْ غِناءَ الطلاقةِ وقتَ السحرْ
يغنى فيخلق حُلوَ النغمْ ويهتك حرمة هذى الظُّلَمْ

وشاعريةُ خواطرها هى مصدر تقديرنا لشعرها أكثر من ديباجتها ، وانفعالاتها المثالية تَسم فنَّها بطابع البقاء . اسمع إليها تقول فى صوفيةٍ وأنفةٍ :

أنى لأهزأ مِن قضاءٍ جائرٍ جعل القتادَ كنفحةِ الأزهارِ !

ولا يقتصر الشعر المصرى الحديث على من ذكرنا من الشعراء ، بل ان هناك شعراء آخرين نجهلهم ، وهناك غيرهم تَغلَّبَ الشعرُ العاطفى والغنائى على سواه لديهم كالشاعرين أحمد رامى وزكى مبارك ، وسواهم حدثنا عنهم الأديبُ الناقدُ على محمد البحراوى فى مجموعته الشعرية الخاصة بأدباء

الاسكندرية [1] ، ونذكر من بينهم الشاعر الاسكندرى محمد السيد وله قصيدة جيدة عن « طيور الماء » ، والشاعر عبد الحميد السنوسى العامى وله قصيدة لطيفة عن « الغدير » ، وقد جاء فيها :

مرّت عليكَ دهورٌ من بعدهنّ دُهورْ
وأنتَ للصبِّ مَلْهى وللحزين سميرْ
كم قبلتكَ شموسٌ وقبلتكَ بدورْ
وكم عليك تغنّتْ بشعرهنّ الطيورْ

والشاعر عثمان حلمى ونزعته غنائية محضة وقصصية سردية ، وليست له شخصية فنية فيما يذكره من الأوصاف الطبيعية التقليدية ، وانما هى تمضى كجزء من حلاوته اللفظية وطلاوته فى غنائياته فحسب ، ومثله فى ذلك الشاعر المعروف محمد فضل اسماعيل . وأمّا عبد اللطيف النشار فله خطرات ونزوات فى الطبيعة شبيهة بما للعوضى الوكيل .

فما تقدم يتضح أن الأدب المصرى تقدم تقدماً يبشر بمستقبل زاهر ، وقد أتحفنا الأدباءُ فى الخمس السنين الأخيرة بدواوين شعرية تبلغ العشرين ، وهى جديرة بالدرس ، كما ظهر فى الجو الأدبى أدباء مصريون فاقوا أدباء العربية المشهورين : فطران أكثر تعمقاً فى تصويره من البحترى ، وأبو شادى أكثر فناً من ابن الرومى ، وناجى أكثر رقة من جرير أو أبى فراس ، والصيرفى لا يحاكى فى شعره الأثيرى ، وجودت أعذب موسيقية من الشاب الظريف . وقد ابتدع العصر الحديث موضوعات جديدة لم يعرفها العربُ ، فشعرُ الطبيعة المستقل قد بلغ درجة لا تقابل بما كان

(١) ديوان الاسكندرية للاديب على محمد البحراوى

للشعر العربى ، والنغمات المنوّعة فى موسيقى شوقى أى فى رواياته لم يعرفها شاعرٌ عربىٌّ من قبل ، واذا كان شوقى فى عصرنا الحاضر امتاز بحلاوة التوقيع بعدد نغماته الموسيقية فانه فى تصويره الصُّنَاع لم يتناول النفس ، وهمسات الروح ، ويكفى أن تكون ميزته الموسيقية بالغة مدى العذوبة لتبقى اسم هذا الشاعر فى سجل الخلود . وأما مطران فانه وإن لم يبلغ درجة شوقى فى جمال الموسيقى وقوة التعبير ، فهو شاعر فنّان استوت طاقته الشعرية مع مشاهداته الفنية ، وامتاز بتصويره النفسى والحسى معاً لمرائى الطبيعة ، وأما شكرى فقد تغلبت طاقتهُ الشعرية على فنه ، وغلب تصويره الحسى على تصويره النفسىّ . وأما أبو شادى فقد خلقَ لنا الجوَّ الشعرى وجمع تصويره للطبيعة الأوصاف المادية ، والمعانى الروحية والفلسفية الدقيقة . وأما العقاد فقد غلب ميله التفكيرى على طاقته الشعرية ، ولكنه أتحف الأدبَ العربى بالتعابير الخاصة عن احساساته فى جيرة المرائى الطبيعية . وفى النماذج التى أوردناها لشعراء الشباب ما يبشر بمستقبل زاهر ، وإنْ كانت التجارب الشعرية لم تبلغ المرتبة التى نتطلع إليها ، ولكن تنوُّع تلك النماذج هو بلا جدال ثروة وقوة للأدب المصرى الحديث . ومن شعرائنا الممتازين ناجى وتتمثل فيه العذوبة المصرية والصفاء الذهنى ، ويمتاز بشعره الوجدانى ، أما شعرُه الطبيعى فقليلٌ وأغلبه إن لم يكن كله ممتزج بنفثات قلبه ، والشاعر العاطفى الرقيق صالح جودت شاعر موسيقى يغنى نغمةً واحدةً ، وقلبه يتفتح للحياة ، وقد أنسته لهفاتُ قلبه كلَّ شىء ، فلم يهتم بالطبيعة ، وقد جرى فى وهمه أن إلهة الحب جُنَّت به جنوناً ، فاكتفى بما ألقت فى قلبه من الأغانى العذاب . وأما الصيرفى فهو شاعرٌ سابحٌ فى الخيال ، يخلق لك من شعره جواً عبقاً بالعطر الشعرى والموسيقى الهادئة ، وكأنما ينادى

المجهول ولكنه يضرب على مزهر يشجى النفس ويحزنها ، ولم يكتب فى الطبيعة على حدة . وللشاعرين الهمشرى والسحراوى أصالة من نوع خاص ولم يتناولا الطبيعة تناولاً مستقلاً أيضاً ، وأما الشاعران عتيق والعمروسى فقد تناولا الطبيعة إلى حدٍّ ما ، وطاقتهما الشعرية لا تتساوق مع فنهما الشعرى . والشاعران محمود حسن اسماعيل وأحمد مخيمر تناولا الطبيعة بصورة مستقلة ، والأول منهما ـ مع طاقته الشعرية ـ لا يذيع فينا جواً شعرياً إلا فى القليل النادر من قصائده . وأما مخيمر فليست طاقته بالكبيرة وإن كانت تجربته الفنية معتبرة . والشاعر الوصاف على محمود طه يجهد نفسه ليخرج زهرات جميلة الرواء ولكنها لا تتنفس العبير الشعرى ، وحبذا لو ترك نفسه لطبيعتها المتأثرة دون التفنن فى التنميق اللفظى والزركشة التى لا يأنس بها الشعر الحقيقى . ويطيب لى أن أكرر التنويه بالشاعر النابه محمد سعيد السحراوى ، وهو يسبق بتفكيره جيله ، وقد تناول فى الطبيعة أحداثاً غامضة وضعها بأسلوب سريع رشيق ، وقصيدته « نحو الفجر » من عيون قصائده ، وهى صورة وصفية للطبيعة فى الفجر وبعد بزوغه (مجلة « الإمام » ، عدد يناير سنة ١٣٩٦) ، وفى الفقرة الأخيرة منها يقول :

إن هذا الصباحَ نايٌ رقيقٌ لأغانى الطبيعةِ العذراءِ
فنعيقُ الغرابِ فى هدأةِ الفجرِ وصرُّ الرياحِ والأنواءِ
ونشيدُ الطيورِ فى بسمةِ الفجرِ وهمسُ الرمالِ فى الصحراءِ
وصدى الريحِ فى تزاحمِ بالأرضِ والماءِ : بعضُ هذا الغناءِ !

وله فى « المساء » قصيدة وصفيه بديعة ، تمتاز كسائر شعره بالفكرات البعيدة التخيُّل ، نذكر منها الفقرة الثالثة التى جاء فيها :

بَعَثَ الليلُ فى الطبيعةِ روحاً هامساً بالسكون والإدجاءِ
فصفيرُ الظلامِ يبعثه الليـ ـلُ وقد كان تائهاً فى خفاءِ
وهو ما زال فى المساء خفيّاً كزحامٍ يَتيهُ فى الصحراءِ
فالظلامُ البهيمُ كالهيكلِ المنـ ـخُوبِ بين الضياءِ والأصداءِ
يلمعُ النورُ فى حواشيهِ كالأزـ ـهارِ ما بين روضةٍ فيحاءِ
وأغانى الرُّعاةِ للبُهْمِ إذ ترـ ـجعُ بعد العناءِ والإعياءِ
هى جزءٌ من ثورةِ البحرِ إذْ يزـ ـخرُ فى الموجِ بالحصى والماءِ
ونسيمُ السكونِ فيه رخاءٌ مثلَ لحنٍ على ضفافِ الفناءِ !

هذه نُخَبٌ من أعمال الشعراء المعاصرين المنجبين فى مصر ،وهى فى اعتقادى بذرة صالحة لأزهار أدب مثمر نافع يانع ، وقد أوجزنا فى عرض النماذج مع وجود ثروة واسعة لم يتسع لها هذا البحث الذى لم نقصد به إلا الإثارة لدرس هذا الأدب اللذيذ ، والإهابة بكل من تجرى فى جوارحه نسمةُ الشاعرية أن ينساب فى مملكة الطبيعة لينهلَ من جمالها السَّرِىِّ ويحلم فى عذوبتها ، وليتسمع أپوللو وهو يعزف على قيثارته فى هدأة الأثير أغانيه الحلوة الشاردة .

(انتهى)

أهم المراجع

(١) المراجع العربية

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة

(٢) نهج البلاغة للإمام على

(٣) الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى

(٤) العمدة لابن رشيق

(٥) عصر المأمون لفريد رفاعى

(٦) نهاية الأرب للنويرى

(٧) الطبيعة فى شعر المتنبى لأبى شادى

(٨) أعلام الكلام للقيروانى

(٩) خزانة الأدب للبغدادى

(١٠) يتيمة الدهر للثعالبى

(١١) مذكرات أدب اللغة لأحمد نجاتى

(١٢) دواوين معظم الشعراء المذكورين فى هذا البحث ودراسات منوّعة عنهم

* * *

(٢) المراجع الفرنجية

(1) Anthology of Ancient Egyptian Poems. By Sharpley

(2) Interpretation of Nature. By H. Farquhar.

(3) The Origin of French Romanticism. By M. B. Finch and E. Allison Peers.

(4) Nature in Literature. By Edmund Blunden.

(5) Le Romantisme. By Louis Reynaud.

(6) Profils & Jugements. By Sainte-Beuve.

(7) The Beauties of Nature. By Lord Avebury.

(8) Litterature Américaine. By Régis Michaud.

(9) Progress of Poetry. By I. M. Parsons.

(10) Abushâdy: The Poet.. By I. A. Edham.

(11) Les feuilles d'automne. By Victor Hugo.

(12) Encyclopœdia Britannica (14th. Edition).

* * *

(٣) المجلات العربية والفرنجية

(١) الإمام

(٢) أبوللو

(٣) أدبى

(٤) الرسالة

(٥) صحيفة دار العلوم

(٦) الزّهور (لانطون الجميّل)

(٧) الضياء (لابراهيم اليازجى)

(٨) المجلة المصرية (لخليل مطران)

(٩) The Poetry Review

(١٠) The London Mercury

(١١) The Outline

(١٢) The Bookman

فهرس

	صفحة
تصدير	٣
إلمامة	١٧
الأدب المصرى القديم	٢٠
الأدب العربى	٢٣
الأدب الانجليزى	٤٦
الأدب الفرنسى	٥٠
الأدب الفرنسى الحديث	٥٨
الأدب الأمريكى	٦٤
الأدب الانجليزى الحديث	٦٩
الشعر الفرنسى الحديث	٧٤
الأدب المصرى الحديث	٨٧

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٨	١٦	الشاعر الظريف	الشابه الظريف
٤٣	١٥	القرن السادس	القرن السادس عشر

تحت الطبع

ديوان السحرتى

صورٌ شتّى من شعر الطبيعة

والوصف والعاطفة

لناظمه

مصطفى عبد اللطيف السحرتى المحامى

(يصدر فى خريف سنة ١٩٣٧ مع تصدير بقلم الدكتور أبى شادى)

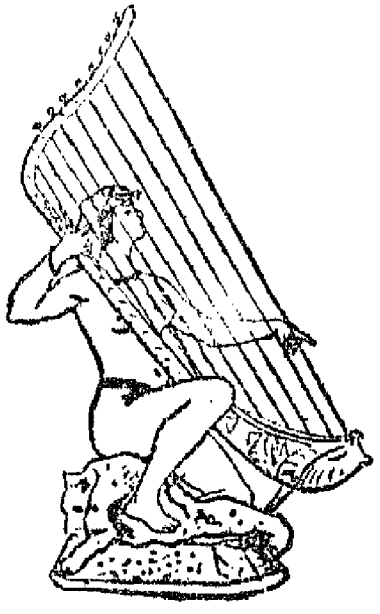

مجلة الثقافة المصرية

تصدر شهرياً عن « ندوة الثقافة » بالأسكندرية

يساهم فى تحريرها أعضاءُ « جمعية أبوللو » و « اتحاد الأدب العربى » و « جماعة الأدب المصرى » و « رابطة الأدب الجديد »

(رئيس التحرير)

مصطفى عبد اللطيف السحرتى المحامى

(بدل الاشتراك السنوى)

عشرون قرشاً فى مصر والسودان

وستة شلنات فى الخارج

(الادارة)

رقم ٣ بشارع فرنسا بالاسكندرية

تليفون : ٢٠٠٣٠